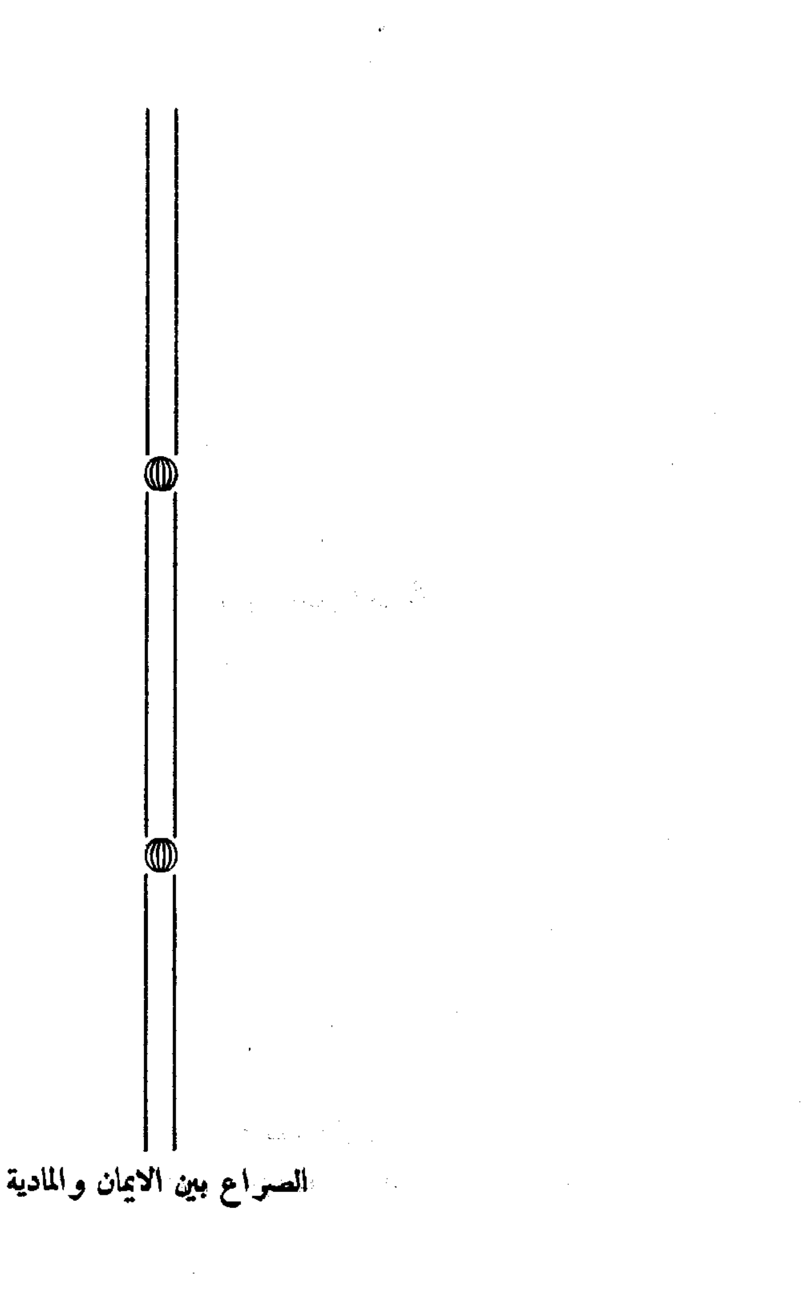
ابو الحسن علي الحسني الندوي

الصراع بين الايمان والمادية

تأملات في سورة الكهف





الصراع بين الايمان و المادية

الطبعة الأولى
عام ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد وآله وصحبه أجمعين .

أمـا بعد ! فقد نشرت مجلة « المسلمون » الغراء سلسلة مقالات للكاتب بعنوان « تأملات في سورة الكهف » نشرتها تباعاً في عام ٧٨ – ١٣٧٧ هـ (المجلد السادس ، عدد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) ، حظيت بالعناية والاعجاب في الأوساط العلميـــة الدينية ، ولعلها كانت باعثة لكثير من القراء على دراسة هذه السورة الكريمة والتأمل فيها من جديد، والاقتناع بأن بينها وبين فتن هذا العصر ، والقدرة على مقاومتها صلة قوية عميقة ، وبقيت هذه المقالات دفينة مطمورة في مجلدات المجلة ، لا يتسع وقت الكاتب لتنقيحها والزيادة فيها ، ولنشر الكتاب من جديد ، حتى جدّت حوادث في العالمين العربي والاسلامي ، ورأى المؤلف ، افتتان العقول والنفوس بالمادية ، وسرعة إيمانها بكل

دعوة برعت وفاقت في التدجيـــل والتلبيس ، ورأى قصة الصراع بين الإيمان والمادية تمثل على مسرح العالم بصفة عامة ، وعلى مسرح الشرق العربي بصفة خاصة من جديد ، وكل ذلك شحذ العزم على نشر هذه السلسلة ، وجدت للمؤلف في هذه المدة دراسات وتأملات ، وتفتّحت له منافـــذ جديدة ، وجوانب عديدة في التدبر في معاني هذه السورة .

فتناول هذه المقالات بالتحرير والزيادة ، وضم إليها مواد جديدة، وبحوثاً مقارنة في قصة أصحاب الكهف وذي القرنين تزيد هذه السلسلة قيمة علمية ، وتحمل الباحثين على الدراسات المقارنة وإثبـــات اعجاز القرآن وهدايته للانسان في كل زمان ومكان .

وها نحن أولاء ننشر هــذا الكتاب متوكلين على الله ، ثم معتمدين على أن الايمان لم تنطفىء جمرته ، وعلى أن النفوس لم تفقد صلاحيتها لقبول النافع المقبول ، والمستقيم المعقول ، وعلى أن الخيط الذي كان يربط قلوب هذه الأمــة بهذا الكتاب لم ينقطع بعد ، « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

٢٥ شعبان ١٣٩٠ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي
المجمع الاسلامي العلمي
دار العلوم ، ندوة العلماء ، لكهنئو ـ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلتي بسورة الكهف

من السور التي نشأت على قراءتها منـــذ عقلت وميّزت سورة الكهف يوم الجمعة [1]، أتلوهـــا تعبداً وثواباً كعامة الناس، وفي دراستي للحديث النبوي الشريف رأيت حثاً على قراءة سورة الكهف وحفظها، وان ذلك يعصم من الدجّال[2]

---

(١) يرجع الفضـــل في ذلك الى تربية أمي السيدة خير النساء، التي كانت توصيني دائماً بقراءة هذه الســورة الكريمة يوم الجمعة، وتحاسبني عليها حيناً بعد حين. حتى حفظتها بكثرة قراءتي لهـــا، وكانت من السيدات المثقفات، الثقافة الدينية، حفظت القرآن، ولها مؤلفات وشعر رقيق مطبوع تناجي به الله، وتعبّر فيه عن عواطفها الدينية. توفيت الى رحمة الله تعالى لست خلون من جمادى الآخرة ١٣٨٨ هـ.

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «من قرأ سورة الكهف كما انزلت ثم خرج الدجّال لم يسلط عليه، ولم يكن عليه سبيل» (رواه الحاكم في المستدرك)، وأخرج ابن مردويه والضيـاء في المختارة عن علي قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ الكهف يوم =

وتساءلت: هل في هذه السورة من المعاني والحقائق والتنبيهات والزواجر، ما يعصم من هذه الفتنة التي استعاذ منهـــا النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً، وحث أمته على الاستعاذة منهـا حثاً شديداً، والتي هي الفتنة الكبرى الأخيرة التي قال عنها: « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجّال»[1]، ولماذا خص رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو أعرف خلق الله بكتاب الله وأسراره وعلومه – هذه السورة الكريمة من بين سور القرآن؟

صلة سورة الكهف بفتن العهد الأخير:

ورأيته نفسي تتوق إلى معرفة سرّ هذا التخصيص، والصلة المعنوية بينها وبين هذه العصمة، التي أخبر بها الرسول صلى الله

= الجمعة فهو معصوم الى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجّال عصم منه».

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حفظ عشر آيات من أول (وروى من آخر) سورة الكهف عصم من فتنة المسيح الدجال»، أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وعنده ثلاث آيات من سورة الكهف، وصححه، وفي مسند احمد: « من قرأ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» (ج ٦ ص ٤٤٦ – ص ٤٤٩) وروى النسائي: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فانه عصمة له من الدجال»، والأحاديث في ذلك كثيرة.

(١) رواه مسلم عن عمران بن حصين.

عليه وآله وسلم ، ففي القرآن سور من القصار المفصل، وسور من الطوال ، عدل عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه السورة ، وخصها بهذه الخاصة العظيمة [1] ، واقتنعت إجمالاً، بأن هذه السورة ، هي السورة القرآنية الفريدة ، التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعمها الدجّال ، ويتولى كبرها ، ويحمل رايتها ، وتحتوي على أكبر مقدار من الترياق الذي يدفع سموم الدجّال ويبرىء منها، وأن من يتشرب معاني هذه السورة ويمتلىء بها — وهو نتيجة الحفظ والاكثار من القراءة في عامة الأحوال — يعتصم من هذه الفتنة المقيمة المقعدة للعالم ، ويفلت من الوقوع في شباكها ، وإن في هذه السورة الكريمة من التوجيهات والارشادات ، والأمثال والحكايات ما يبين الدجّال ويشخصه في كل زمان ومكان ، وما يوضح الأساس الذي تقوم عليه فتنته ودعوته ، وتهيىء

---

(١) وقد انتهج بعض العلماء الراسخين ، وكبار المحدثين والمفسرين هذا المنهج من التفكير، وتأملوا في هذه السورة، ورأوا بينها وبين فتنة الدجال صلة معنوية ، وقد نقل العلامة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) في مجمع بحار الأنوار ، عن بعض من تقدم قوله : « وفي الحديث في فضل سورة الكهف عصم من الدجال ، أي الذي يخرج في آخر الزمان ، كما عصم أصحاب الكهف من ذلك الجبار ، أو من كل دجال يلبس ، لما في هذه السورة من العجائب والآيات ، فمن تدبرها لم يفتتن » ، قال : « وعندي أن ذلك لخاصية اطلع عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ، (مجمع بحار الأنوار مادة « دجل ») .

العقول والنفوس لمحاربة هـــذه الفتنة ومقاومتها ، والتمرد عليها ، وأن فيها روحاً تعارض التدجيل وزعماءه ، ومنهج تفكيرهم ، وخطة حياتهم في وضوح وقوة .

السورة خاضعة لموضوع واحد : اقتنعت بهذه الفكرة اجمالاً ، وأقبلت إلى دراسة هذه السورة الكريمة، كأنها سورة جديدة عليّ ، ودخلت في معانيها ومضامينهـا ، وأنا أحمل هذا المصباح – الفكرة التي اقتنعت بهـا – فوجدتني في عالم من المعاني والحقائق لا عهد لي به من قبل ، ووجدت السورة كلها خاضعة لموضوع واحد ، أستطيع أن اسمّيه « بين الايمان والمـادية » ، أو « بين القوة المصرفة لهذا الكون (هو الله) وبين الطبيعة أو الأسباب » ، ووجدت جميع الاشارات أو الحكايات ، أو المواعظ والأمثـال دائرة حول هذا المعنى ، تشير إليه من طريق جلي ، أو تنظر إليه من طرف خفي .

واغتبطت بهـــذا الفتح ، وانكشف لي جانب جديد من إعجاز القرآن ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمـا كنت أعرف أن هذا الكتاب الذي نزل في القرن السادس المسيحي – يعني قبل ثلاثة عشر قرناً وزيادة – يحمـل صورة صادقة ناطقة بهذه المدنية الداجلة التي تولدت في القرن السابع عشر المسيحي ، واختمرت في القرن العشرين ، ويصوّر نهايتهـا وأوجها ، وزعيمها الأعظم الذي يسميه لسان النبوة في إعجاز وإيجاز « بالدجّال » .

وفاض على قلمي بعض هذه المعاني ، والتمهيد لتفسير هذه السورة بالاجمال، وأنا معلّم التفسير في دار العلوم ندوة العلماء قبل خمس وعشرين سنة تقريباً ، ونشرته في مجلة « ترجمان القرآن» لصاحبها ورئيس تحريرها الاستاذ أبي الأعلى المودودي، التي كانت تصدر من حيدر آباد يومئذ .

واتفق لي أن نزلت ضيفاً على العلامة الكبير نادرة هذا العصر الشيخ مناظر أحسن الكيلاني [1] رئيس القسم الديني في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٦٦ هـ. (١٩٤٦ م)، وكنا نتذاكر كل ليلة، فذكر لي أنه اطّلع على هذه المقالة القصيرة ، وسُرّ بها ، وأخبرني أنه كتب في هذا الموضوع على عادته بإسهاب وتوسع ، وسيرسله إلى مجلة « الفرقان » ، وأصدرت هذه المجلة عدداً خاصاً بالراحل العظيم نشرت فيه هذه المقالة برمّتها .

---

(١) هو أوسع العلماء الذين عرفتهم في هذا العصر ثقافة، وأغزرهم علماً، يمتاز بالذكاء الباهر ، ودقة الاستنتاج ، وتوليد المعاني ، وسيلان القلم ، والاطلاع الواسع على العلوم الدينية ، والتاريخ ، والفلسفة ، ولد عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩٣ م) ، ودرس في « تونك » و « ديوبند » ، ورأس القسم الديني في الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، ودرس وخطب ، وكتب وألف ، ومن مؤلفاته البديعة « النبي الخاتم » و « أبو ذر الغفاري » و « تدوين الحديث » و « حياة الامام أبي حنيفة السياسية » و « نظام الاسلام الاقتصادي » ومقالات كثيرة قيمة ، توفي عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٦م) رحمه الله وأثابه .

لقد أثارت هذه المقالة – المنشورة من جديد – الرغبة في الحديث عن هـذه السورة العظيمة ، وصلتها بالعهد الأخير ، وفتنته ، ودعواته ، واتجاهاته ، وفتنة الدجال بصفة خاصة ، ومـا في ذلك من الدروس ، والعبر ، والآيات ، ورأيت أن أقيّد ما يجول في خاطري ، وما فتح الله بـه عليّ في فهم هذه السورة ، مستعيناً بمـا جاء في مقالة العلامة الكيلاني ، الذي أعتبره من أساتذتي وشيوخي ، وإن لم تكتب لي التلمذة التقليدية ، وكان يعتبرني من أعز اخوانه [1] ، – من النكت البديعة ، والتوجيهات البليغة ، ولطائف القرآن الدقيقة ، وليس ما أكتبه تفسيراً لهذه السورة على أسلوب المفسرين ، إنما هي تأملات ونظرات عامة في هذه السورة العظيمة .

مفتاح شخصية الدجّال : مفتاح شخصية الدجـال الذي تفتح به أغلاقها ، وتعرف به أعماقها وتتميز به عن سائر دعاة الشر والإفساد ، والفكر والإلحاد ، هو لقب «الدجّال [2]» الذي

---

(١) كتب إليّ رحمه الله على أثر علة برأ منها : « اني كلما غلبني الوجع وانقطع الرجاء من الحياة تمثل لي وجود العزيز ، وتمثلت بيت الشاعر :

أهيم بليلى مـا حييت فإن أمت أوكّل بليلى من يهيم بها بعدي

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب : « الداجل المموّه الكذاب ، وبه سمي الدجال ، والدجال هو المسيح الكذاب ، وإنمـا دجله سحره وكذبه ، قال ابن خالويه ليس أحد فسر الدجال أحسن من تفسير أبي عمرو ، قال : الدجال المموه ، يقال دجلت السيف موهته ، وطليته بماء الذهب ، قال الأزهري: كل كذاب فهو دجال ، ودجل الشيء بالذهب التذهيب ، =

غلب عليه ، فهو شعاره الذي يعرف به ، والدجل والتدجيل ، هو القطب الذي تدور حول شخصيته ، ودعواته ، وأعماله ، وتصرفاته .

وقد اتسمت الحضارة المادية في العهد الأخير بالتدجيل [١] في كل شيء ، والتلبيس على الناس ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، وتمويه الحقائق ، وإطلاق الأسماء البرّاقة الخلابة للعقول على غير مسمّياتها ، وبكثرة الاختلاف بين الظاهر والباطن ، والأول والآخر ، والنظريات العلمية ، والتجارب العملية ، وهذا شأن الشعارات والفلسفات ، التي حلت محل الأديان ؛ وسحرت النفوس والعقول [٢] ، والكلمات التي

= يقال لماء الذهب دجال ، وبه شبه الدجال لأنه يظهر خلاف ما يضمر. قال أبو العباس : سمي دجالاً لتمويهه على الناس وتلبيسه وتزيينه الباطن ، يقال قد دجل اذا موه ولبّس ، (لسان العرب باختصار واقتباس) .

(١) عن حذيفة بن اليمان قال:« ان الدجال يخرج،وان معه ماءاً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءاً فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب » (أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة)، وفي رواية أبي هريرة « أنه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول أنها الجنة هي النار » .

(٢) مثل « الحرية » و « الاشتراكية » و « الديمقراطية » و « رفع مستوى المعيشة » و « الرفاهية » و « الحقوق الانسانية » وحتى لفظ « الحضارة » و « الفنون الجميلة » و « الدستور » الى غير ذلك من الشعارات .

أحاطت بهـا هالات التقديس والتمجيد ، وحلّ حبُّها ، واحترامها في قرارة النفوس ، وحبّـات القلوب ، وأصبح الشك في قدسها ، أو النقاش في كرامتها ، ومكانتهـا علامة للرجعية ، وإنكاراً للبداهة ، والمشهود المحسوس ، وقد التبس الأمر بذلك على كبار الأذكياء ، ونوابغ العلماء ، فأصبحوا يتغنّون بهذه الشعارات والفلسفات ، ويدعون إليهـا في ايمان وحماس من غير تمحيص لنية أصحابها وإخلاصهم ، أو شجاعة في تحديد نجاحها وإخفاقها ، في مجـال العمل والتطبيق ، والمقارنة الصحيحة المحايدة ، بين ما كسبته الانسانية والأمم الضعيفة ، وبين ما خسرته من سلطان هذه الشعارات وتحت رايتها ، من السعادة الحقيقية ، والحقوق الفطرية ، وهذا كله من قوة التدجيل وسحره، الذي يفوق فيه « الدجال الأكبر » على جميع الدجالين والمدلّسين ، والموهين ، الذين عرفهـم التاريخ البشري . وقد سرت هذه الروح «الدجلية المدلّسة» في هذه الحضارة ، لسيرها على خط معارض لخط النبوءة ، الايمان بالآخرة ، والايمان بالغيب ، والإيمان بفاطر الكون ، وقدرته المطلقة ، واحترام شريعته وتعاليمه ، وللاعتماد الزائد على الحواس الظاهرة ، والشغف الزائد ، بما يعود على الانسان باللذة البدنية والمنفعة العاجلة ، والغلبة الظاهرة ، وهي النقطة التي تدور حولها سورة الكهف ، وما جـاء فيها من قصص وعبر .

دور المسيحية واليهودية ، المتشابه

في توجيه المدنية ، ومصير الانسانية : وقد كان مع الأسف المسيحية المحرّفة ، وهي التي قادت الحضـــارة في أوربا بعد القرون الوسطى في العالم المتمدن ، ولليهودية الثائرة الموتورة دور متشابه – رغم الخلاف الجزري في العقيدة – في توجيه المدنية إلى المادية الرعناء ، المجردة من الروح وتعاليم الأنبياء ، والتأثير في مصير الانسانية على حد سواء، فقد بدأت الشعوب المسيحية التي تحررت من رق الكنيسة والبابوات ، وضعفت صلتها – إذا لم نقل تقطعت كلياً – بالمسيحية السمحـــة ، المؤسسة على التوحيد الخالص ، فاتجهت اتجاهاً مادياً عنيفاً ، أصبح يهدّد العالم ، ومصير الانسانية بالاكتشافات العلميـــة الحديثة ، والمخترعات المدمّرة المبيدة ، وفقد التوازن بين العلم والعاطفة والعقل والضمير ، والصناعة والأخلاق .

وقد ساهم اليهود في العهد الأخير – بأسباب يعود بعضها إلى خصائص النسل والدم ، وبعضهـا إلى التعليم والتربية ، وبعضها إلى الغايات السياسية ، والمشاريـع القومية – بأكبر قسط في العلم والفن ، والاكتشاف والاختراع ، وفي السيطرة على هذه الحضارة ، وتملّك زمامها ، وتوجيهها في صالحهم ، والتأثير في الأدب والتربية ، والسياسة والفلسفة ، والتجارة ، والصحافة ، ووسائل التوعية والإعلام ، حتى أصبحوا العنصر الفعّال الرئيسي في قيادة الحضارة الغربية التي ظهرت في بيئة

مسيحية ، وفي حضانة شعوب آمنت بالمسيح ، واحتضنت اسمه هذا العهد الطويل ، ويبدو للناظر المتعمق في الحوادث الأخيرة ، والمطلع على مدى نفوذ اليهودية العالمية في المجتمع الغربي ، أن هذه الحضـــارة وما تحوي عليه من علم وفن ، ستبلغ نهايتها السلبية ، وتصل إلى ذروتها في قوة التدمير والهدم والافساد ، والتلبيس والتدجيل ، على أيدي اليهود الذين مكن لهم الغرب المسيحي – بغفلة منه وجهل ببراميهم البعيدة وطبيعتهم الحاقدة – كل تمكين ، وأتاح لهم كل فرصة لم يكونوا يحلمون بها قبل قرون ، وكانت في ذلك أكبر محنة للانسانية وأكبر خطر على العالم ، فضلاً عن العرب ، الذين يكتوون بنارهم ، فضلاً عن المنطقة المحدودة التي يجري فيها هذا الصراع الحاسم .

لذلك نرى أن لهذه السورة اتصالاً وثيقاً بالمسيحيـــة واليهودية، فقد تعرضت للعقيدة المسيحية في مفتتحها، وهكذا تبتدىء السورة الكريمة :

« الحَمْدُ للهِ الذي أنزلَ على عبْدِهِ الكتابَ ولمْ يجعلْ لهُ عِوَجاً ، قيّماً لِيُنْذِرَ بأْساً شَدِيداً منْ لدنْهُ ويبشرَ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصّالحاتِ أنّ لهمْ أجراً حَسَناً ماكثينَ فيهِ أبَدَاً ، ويُنذرَ الذينَ قالُوا اتّخذَ اللهُ ولَداً، ما لهمْ

بهِ مِنْ علمٍ ولا لآبائهمْ كَبُرتْ كلمةً تخرجُ منْ أفواههمْ إنْ يقولوُن إلّا كذبا[1] .

وقد كانت السمة البارزة الثانية للحضارة التي نشأت في حضانة المسيحيين ، وشبّت وترعرعت تحت رعايتهم ، الشغف الزائد بهذه الحياة المحدودة الفانية ، والحرص على تمديدهـا وتزيينها ، والمبالغة في إجلالها وتفخيم شأنها، والاتجاه إلى نفي كل ما وراءها ، من مثل وقيم ، وخيرات ونعم ، والاقتصار على التنافس في السيطرة على أسبابها وطاقاتها وذخائرها، وهي النقطة التي تلتقي عليها اليهودية معها – رغم ما بينها من عداء وتناقض–فقد تجردت التوراة عن ذكر عالم الآخرة ، والحياة الآخرة ، والحث على الاستعداد لها ، وصرف القوى والمواهب إلى نيل السعادة فيها ، وإثارة الحنين والأشواق إلى نعمائهـا وطيّباتها ، والإشارة إلى قصر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها ، وذم حب العلو، والإفساد فيها ، والتزهيد في زخارفها ومتاعها القليل ، وحطامها الزائل ، تجردت عن كل هذه المعاني تجرداً يثير العجب ، ولا يعقل عن الكتب السماوية المنزلة من الله ، وروحها وطبيعتهـا ، فلا عجب إذا كان تاريخ اليهود تاريخ التنافس على المادة ، والنهامة للثروة ، والكفـاح للسيادة (السلالية) ، والكبرياء القومي ، وقد تجلى ذلك بوضوح في

(١) سورة الكهف ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

كل مـــا نسب إليهم من كتب دينية مقدسة ، أو صدر عن أقـــلامهم وقرائحهم من أدب وشعر ، وقصص وملاحم ، ونبوات وكهانات ، أو أثر عنهم من بطولات ومغامرات ، وحروب وثورات ، أو عرف عنهم من إبداعات واختراعات أو عزي إليهم من أفكار وفلسفات ، فإن أندر شيء في كل ذلك ، هو الرقة والتواضع ، وهضم النفس وإنكار الذات ، والاستهانة بالحياة الدنيا ، والشوق إلى لقاء الله ، والحنين إلى الآخرة ، والرحمة بالإنسانية على اختلاف طبقاتها ، وأجناسها ، وأوطانها .

ولذلك ثنّى الله تبارك وتعالى الإنكار على عقيدة الشرك ، وعقيدة الأبنية أو الولدية التي تبنّتهـــا المسيحية ، وتولّت كبرها ، والإنكار على عبادة هذه الحياة ، واتخاذ دارها المحلّ والقرار ، والانصراف إليها عن كل ما سواها ، ونوّه بقصر هذه الحياة ، وتداعي هذا الأساس الذي تقوم عليه ، فقال : « إنّا جعلْنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوَهمْ أيّهمْ أحسنُ عملاً ، وإنّا لجاعِلونَ ما عليها صَعيداً جُرُزاً »[1] .

وأعاد هذا الإنكار والتشنيع على عبّاد الحيـــاة الدنيا ومنكري الآخرة ، أو الغافلين عنها ، فقال : « قُلْ هلْ ننبّئكُمْ بالأخسرينَ أعمالاً الذينَ ضلّ سعيُهمْ في الحياة

---

(١) سورة الكهف ٧ ، ٨ .

الدُّنْيا وهُمْ يحسبونَ أنَّهمْ يُحسنونَ صُنْعا [1] » .

وهكذا أحاطت عقيدة الآخرة ، وعقيدة الإيمان بالغيب، والإيمان بفاطر هذا الكون ، وقدرته المطلقة المسيطرة على كل شيء ، المتصرفة في كل شيء ، بأول هذه السورة وآخرها ، وبجميع جوانبها وهي عقيدة ونفسية ، وعقلية وطبيعة ، تأباها المادية التي لا تعتمد إلا على الحسّ والمشاهدة والتجربة ، والمنفعة العاجلة، واللذة البدنية، والسيادة القومية أو العنصرية، وتتنصل عنها وتحاربها بكل قوة ووسيلة، فجاءت هذه السورة تشتمل على مادة تستأصل جذور المادية التي قدر الله أن يكون المسيحيون أكبر مربّيها ودعاتها ، والمشرفين عليها ، في رحلة التاريخ الطويلة ، ثم يتولى قيادتها اليهود الذين حاربوا المسيح منذ أول عهده ، ونافسوا المسيحية في جميع عهودها ، وعلى أيديهم تبلغ هذه المادية ذروتها الأخيرة ، وفيهم يظهر الدجّال الذي يكون أعظم بطل من أبطال الكفر والإلحاد، والتدجيل والتلبيس ، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأن تلاوة هذه السورة، والمحافظة على أوائلها أو خواتيمها تعصم من فتنته ، وهكذا كانت بين بداية هذه السورة ونهايتها مناسبة لطيفة لا تخفى على الناظر المتأمّل ، ولمجموع السورة صلة وثيقة ، عميقة بفتنة الدجال الذي يظهر في وقته .

---

(١) سورة الكهف ١٠٣ ، ١٠٤ .

قصص هذه السورة الأربع

لقد اشتملت هذه السورة على أربع قصص ، هي معالم هذه السورة وعمدها ، وأقطابهـــا الأربعة التي تدور حولها حكمها ، وتعاليمها ، ومواعظها ، وهي :

١ – قصة أصحاب الكهف والرقيم .

٢ – قصة صاحب الجنتين .

٣ – قصة موسى والخضر (عبد الله الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علما) .

٤ – قصة ذي القرنين الذي مكنه الله في الأرض وآتاه من كل شيء سببا .

إن هذه القصص وإن تنوعت أساليبها وسياقها ، إتحدت في الغرض والغاية ، والروح التي تجمع بينها ، وتربطها ربطاً معنوياً ، عميقاً وثيقاً ، وإليك شرح هذا الإجمال :

نظرتان في هذا الكون : إن هذا الكون خاضع – في غالب الأحوال – لأسباب طبيعية تتحكم في العالم ، وتتصرف فيه ، وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظـــام ، وهي

الأسباب وخواص الأشياء التي قلما تفارق هذه الأشياء وقلما تخطىء ، وفي النـاس من اقتصر نظره على هذه الظواهر والأسباب الطبعية ، واقتصر نظره على هذه الحياة، وعلى هذا العالم المادي المحسوس ، ورأى أن المسبّبات والنتائج تابعة دائماً لأسبابها وعللها ، مرافقة لهـا لازمة ، ليس في الوجود من يحول بين هذة الأسباب وهذه المسبّبات ، ويتصرف فيهـا بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يوجد المسبَّبات من غير أسباب، ويبدعها إبداعاً ، وتعلق بهذه الأسباب ، وعبدها كالأرباب ، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص ، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم ، وتحكمه حكماً مطلقاً كلياً ، وكفر بالحياة بعدها ، وبالبعث والنشور ، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوى الكونية ، والأسباب والخواص ، وتسخير المادة ، وهام في سبيلها ، وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها رباً وإلهاً ، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المـادة والقوة ، حتى إذا نال منها غايته ، وسخّر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته ، أعتقد ألوهيته ، أو أعلن ربوبيته – بلسان المقال أو بلسان الحـال – واستعبد بني جنسه ، وعاث في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، واستباحها لأغراضه وشهواته ، أو طموحه ، أو مجد أمته ووطنه ، أو أسرته وحزبه .

وهنالك نظرة أخرى في هذا الكون تعارض النظرة الأولى

في الأساس والمنهج ، وهي أن وراء هذه الأسباب الطبعية ، والقوى الكونية ، والخواص المودعة في الأشياء ، قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص ، وكما أن هذه الأسباب سبب لهذه المسببات ، فالإرادة الإلهية القـــاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها ، تخلقها وتسيرها ، وتفكها من مسبباتها إذا شاءت فهي سبب الأسباب ، وهي علة العلل . وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل ، وإن خالق هذا الكون ، وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان ، ولم تتحرر هذه الأسباب من رقّه وحكمه ، وهي لا تتمرد عليه ولا تستعصي ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، هو الذي ربط الأشيـــاء بالخواص ، والمسببات بالأسباب ، والمقدمات بالنتائج لحكمة بالغة ، وإرادة قاهرة ، وهو الذي يربط ويفك ، ويثبت ويمحو ، ويوجد الأشياء من العدم ، «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» .

وإن هنالك أسباباً مؤثرة أخرى تعمل في هذا العالم ، وفي مصير الأفراد والأمم ، كالأسباب الطبعيّة أو أشد ، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبعية ، المادية التي تتبع أسبابها ، وهي الإيمان والعمل الصالح ، والأخلاق الفاضلة ، وطاعة الله ، والعدل والعبادة ، والرحمة ، والمحبة ، إلى غير ذلك من المعنويات ، وأسباب تعمل عكسها ، كالكفر

والبغي ، والفساد في الأرض ، والظلم والشهوات ، والآثام ، إلى غير ذلك من المعنويات أيضاً .

وإن من تمسك بالأسباب المعنوية الصالحة – من غير تعطيل للأسباب الطبعية – صالحه هذا الكون ، وطابت له الحياة ، ويسّره الله لليسرى وخرق له–في بعض الأحيان والمناسبات– بعض عاداته ، وأخضع له الأسباب الطبعيـــة ، ومن تمسك بعكسها من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة ، واعتمد على الأسباب الطبعية فقط ، وأسس عليها حياته ، حاربه هذا الكون وخانته القوى التي أخضعها ، وهو أحوج ما يكون إليها ، وثارت عليه الطبيعة .

سورة الكهف ، قصة الصراع

بين الايمان والمادية : إن سورة الكهف قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين ، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها ، وبين الإيمان بالغيب ، والإيمان بالله ، وشرح لما تتبع كل نظرة من العقيدة ، والعمل والأخلاق ، والنتائج والآثار ، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظـــاهر ، وتكفر بالله والغيب .

قصة أصحاب الكهف

وانظر الآن في القصص الأربع ، وأبدأ بالقصة الأولى

من كان أصحاب الكهف والرقيم ؟ ، ما هي قصتهم ؟ ، وما قيمة هذه القصة ومكانتها في تاريخ الإنسان ؟ ، ولماذا خصها القرآن بالذكر ، حتى جعلها قصة باقية خالدة ، تتلى على اختلاف الزمان والمكان .

قصة أصحاب الكهف في الأدب المسيحي ، والقصص الدينية :

وقبل أن نقرأ قصة أصحاب الكهف في الأسلوب القرآني المعجز ، المركز الهادف ، والبلاغة القرآنية التي لا حشو فيها ولا فضول ، نستعرض قصة أصحاب الكهف في الكتب التي تقدمت ، وفي القصص التي تناقلتها الألسن ، وتوارثتها الأجيال ، ونقارن بين موافقات القصتين ومفارقاتها .

لم ترد قصه أصحاب الكهف في أسفار العهد العتيق ، فإنها حادثة وقعت في فجر التاريخ المسيحي ، وبعد ما ظهرت الدعوة إلى التوحيد ورفض الأوثان ، عن طريق أتباع المسيح

عليـــه الصلاة والسلام ، وبعد ما دوّن آخر سفر من أسفار العهد العتيق ، وليست القصـــة بطبيعتها – وقد تجلت فيها بطولة أتباع المسيح ، واستقامتهم – ممـــا يحرص اليهود على حفظها ونقلها، والتغني بها ، ولكنها من أحب القصص الدينية إلى المسيحيين ، لأنها من أعظم القصص غرابة ، وأشدها دلالة على صرامة أتباع المسيح الأولين ، وقوة إيمانهم ، وتفانيهم في سبيل العقيدة والمبـــدأ ، وغيرتهم على تعاليم المسيحية النقية الأولى ، وهي صالحة لإشعال الجمرة الإيمانية ، وإلهاب الغيرة الدينية ، وإثارة قوة المقاومة ، والكفاح في نفوس المؤمنين في كل عصر ومصر، وهذه العناصر كلها التي تمتاز بها هذه القصة، تضمن لبقاء هـــذه القصة على مدى الأعصار ، وانتشارها في الآفاق ، وانتقالها من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر ، فكيف فهمها المسيحيون الأولون ، وكيف رووها لمن جاء بعدهم ؟.

جاء في دائرة المعارف للأخلاق والديانات، ما خلاصته[1]:

---

(١) وقد حكى الأديب المؤرخ الانجليزي الشهير إدوارد جبون (Edward Gibbon) في كتابه الشهير « سقوط روما وانحطاطها » (Decline & Fall of the Roman Empire) هـــذه القصة في أسلوبه الخاص الذي يمتزج فيه التاريخ بالأدب ، والرواية بالتعليق والتفسير ، ويتجلى فيـــه التعصب المسيحي ، والتعرض للإسلام من غير ضرورة ، (راجع صفحة ٢٤١ – ٢٤٣) المجلد الثاني :
Modern Library Giant Series (U. S. A.)

« إن قصة « النائمين السبعة » من أكثر القصص التي تروى عن القديسين ، متعة عقلية ، واشتهاراً في الآفاق، إن عناصر القصة التي تشترك فيها أقدم الكتب كما يلي :

إن امبراطور « ديسيس » (Decius) يدخل في المدينة اليونانية القديمة « افيسيس »[1] ويجدد فيها تقليد عبادة الأوثان ، ويأمر أهل المدينة والمسيحيين بصفة خاصة بتقديم الذبائح والقرابين لها ، وأقلع عدد من المسيحيين عن عقيدتهم

---

(١) ذهب أكثر المفسرين في تفسير سورة الكهف إلى ذلك ، كالبيضاوي ، والنيسابوري ، والآلوسي ، وابن كثير ، وإليه ذهب أكثر المؤرخين ، والجغرافيين المسيحيين ، واختار جبون (Gibbon) في كتابه الشهير « انحطاط روما وسقوطها » ، اقرأ قصة « النائمين السبعة » Seven Sleepers في هذا الكتاب .

أما تحديدها الجغرافي ، فقد جاء في دائرة المعارف للبستاني ، أنها إحدى المدن الأيونية الاثنتي عشرة من الأناطول ، موقعها على الجانب الجنوبي من نهر قيطرة ، وهي على مسافة ٦٠ كيلومتراً من أزمير ، جعلها الرومانيون قاعدة ولاية آسيا الغربية البر ، وقنصلية، ومحطاً لتجارة متسعة زاهرة جداً ، ولكن أعظم فخر لها هو هيكل ديانا - المعبودة اليونانية - العظيم الذي يعد من عجائب الدنيا السبع ، وكان أكبر الهياكل اليونانية .

وذكر بليكي Blackie في كتابه A Manual of Bible History ان مدينة إفيس Ephesus اشتهرت في التاريخ القديم بفلسفتها، وخلاعة أهلها ، واستهتارهم ، وأصبحت مضرب المثل في الفجور والخلاعة ، وكانت وثنيتها مزيجاً من الوثنية الغربية والشرقية .

النصرانية ، وبقي عـــدد منهم متمسكين بديانتهم ، محتملين لاضطهاد رجال الحكومة ، وتعذيبهم . وهنـــا يقدم إلى الإمبراطور سبعة من الشبـــاب (وتقول بعض الروايات أنهم كانوا ثمانية) وكانوا مقيمين في السراي ، وقد اختلف في أسمائهم وقد اتهموا باعتناق النصرانية سرّاً ، وهم يرفضون تقديم القرابين إلى الأوثان ، ويمهلهم الإمبراطور لمدة طمعاً في أن يرجعوا إلى صوابهم ، ويتوبوا عن النصرانيـــة ، ويخرج من المدينـــة .

وفي خلال هذه المدة يغادر هؤلاء الشباب المدينة ، ويأوون إلى كهف في جبل قريب كان يسمى بـ Anchilus ويخرج أحدهم اسمه Diomedes أو Imblicus متنكراً ، وفي ثياب متوسخة رقيعة إلى البلد ، ليتعرف الأخبار ويشتري الطعام ، ولا يمضي على ذلك كثير حتى يرجع « ديسيس » إلى المدينة ، ويأمر بأن يقدّم إليـــه الشباب ، ويخبر Diomedes زملاءه بهذا الأمر السلطاني ، فيتناولون الطعام ، وقد استولى عليهم الحزن والقلق ، ثم يستغرقون في نوم عميق طويل يسلّطه الله عليهم ، ولمـــا لم يهتد الإمبراطور إلى هؤلاء الشباب ، طلب آباءهم فأبدوا براءتهم عن هذا التهرب ، وأن تكون لهم يد في هذه المؤامرة ، وأخبروه بأنهم متسترون في جبل Anchilus وهنا يأمر الإمبراطور بأن يسدّ مدخل هذا الكهف بحجارة كبيرة ، فيموتوا هناك حتف أنوفهم ، ويبقوا موءودين في هذه

المغارة ، ويكتب مسيحيان ، أحدهما Theodore والآخر Rufinus قصة هؤلاء الشهداء الشباب على لوحة من معدن ، ويدفنانها تحت الحجارة التي سدّ بها الغار .

وبعد أن مضى عليهم ثلاث مائة وسبع سنوات في عهد إمبراطور ثيودوسيس الثاني Theodosius تقوم ثورة يقودها بعض المسيحيين ، وتنكر جماعة منهم على رأسهم القس ثيودر Theodore عقيدة بعث الأموات ، وإمكان حشر الأجساد ، فيفزع ذلك الإمبراطور المسيحي ويشغل باله ، وهنا يلهم الله ملأكاً اسمه Adolius أن يبني زريبة لغنمه في الميدان الذي يقع فيه هذا الكهف ، ويستخدم البنّاؤن لبناء هذه الزريبة الحجارة التي سدّ بها هذا الغار ، وهكذا ينكشف هذا الكهف ، ويوقظ الله هؤلاء الشباب في هذه الساعة ، فيخطر ببالهم أنهم ناموا ليلة ، ويتواصون بأن يموتوا شهداء على يد « ديسيس » إذا ألجأتهم الضرورة ، ويذهب أحدهم وهو Diomedes إلى المدينة كالعادة ، ويقف حائراً أمام الصليب المنقوش على رتاج المدينة ، حتى يضطر إلى أن يسأل أحد السابلة ، هل هي مدينة أفيسس حقاً ؟ ويصبح توّاقاً إلى أخبار زملائه بهذا الانقلاب العظيم ، ولكنه يملك عاطفته ويشتري الطعام ، ويقدّم في ثمنه النقود التي كان يحملها ، وهي العُملة التي كان يتعاطاها الناس في عهد ديسس ، ويعتقد صاحب الدكان ، وأهل السوق أن الشاب قد عثر على ركاز

قديم ، ويريدون أن يكون لهم نصيب فيه ، ويهدّدون الشاب ويخوفونه ، ويقودونه من بين وسط المدينة وأسواقها، ويتألب عليه الناس ، ويبحث الشاب في هـذا الجمع الحاشد عن رجل يعرفه ، فلا يجده ، ويستخبره الأسقف حاكم البلد عن شأنه ، فيخبره بالقصة بطولها ، ويدعوهم إلى أن يرافقوه إلى الكهف، ويزوروا زملاءه الآخرين ، فيرتقون قلة الجبل، وهناك يجدون لوحتين رصاصيتين تصدقان قصة الشاب ، فيدخلون الكهف ويجدون زملاءه أحياء ، يغشى وجوههم النور والسكينة ، وينمى الخبر إلى الإمبراطور Theodosies فيزور الكهف ، وهنا يقول له Maximilian أو Achillides أو شاب آخر ، أن الله سبحانه وتعالى قد سلّط عليهم النوم ليبرهن على الحشر والنشر ، ثم أيقظهم قبل أن تقوم القيامة ، وبعد ذلك مات الشباب موتهم الأخير ، وقد بنى هيكل رومي في تذكارهم[١].

---

(١) Article « Seven Sleepers », Encyclopaedia of Religion & Ethies.

وقد ساق هذه القصة بطولها ابن جرير طبري وغيره من المفسرين وعلماء المسلمين في كتبهم برواية محمد بن اسحاق وقد وقعت فيها أوهام لعدم ذيوع المصادر المسيحية في عهدهم وعدم احاطتهم بالتاريخ الروماني قبل أن تصبح النصرانية دين الدولة الرسمي ، راجع تفسير ابن جرير (على سبيل المثال) ج ١٥ ص ١٢٣ – ١٢٦ ، ولذلك عدلنا عن نقلها هنا ، واقتصرنا على المصادر المسيحية الأصيلة .

أما مكانة هذه القصة التاريخية ، فلا يشك كبار المؤرخين والناقدين للأساطير الشائعة في صحتها وإمكان وقوعها لشهرتها واستفاضتها في العالم المسيحي ، وتناقل الأجيال والكتب لها، يقول « جبون » الذي يجنح دائماً إلى تزييف مثل هذه الأخبار الغريبـة .

« ان هذه القصة الغريبة لا يمكن أن تحمل على مجرد خرافة الإغريق ومغالاتهم الدينية فقد اتصلت الروايات الموثوق بها وتسلسلت إلى خمسين سنة بعد وقوع هـذه المعجزة (المفروضة) وقـد خصص قس سوري ولد بعد الامبراطور ثيود وسيس الأصغر بسنتين اسمه James of Sarus رواية من رواياته التي يبلغ عددها إلى مائتين وثلاثين لمدح شبان أفيسس (أصحاب الكهف) وقبل أن ينقضي القرن السادس المسيحي نقلت قصة أصحاب الكهف هذه من اللغـة السورية إلى اللغة اللاتينية بعناية غريغوري Gregory of Tours وقـد حفظت ذكرى أصحاب الكهف في الاجتماعات العشاء الرّباني في الشرق المسيحي بإجلال واحترام ، ودوّنت أسمـاءهم باحترام بالغ في الأعياد الروميـة والتقويم الروسي ، ولم تنحصر شهرتهم في العالم المسيحي فحسب [1] » .

---

(١) راجع كتاب « سقوط رومـا وانحطاطها » لجبون المجلد الثاني « النائمون السبعة » Seven Sleepers صفحـة ٢٤١ – ٢٤٣ ، Modern Library Giant Series (U. S. A.)

أما عدد الأعوام التي قضوها في المنـام ، فهو يتراوح بين ثلاث مائة سنة ، كما نقله المفسرون الإسلاميون عن المسيحيين، وثلاث مائة وسبع سنين (كما جـاء في مقالة دائرة المعارف للأخلاق والديانات) ، أمـا التفاوت بين ثلاث مائة سنين وثلاث مائة سنين وتسع سنوات كما جاء في القرآن ، فقد حمله المفسرون المتقدمون على التفاوت بين التقويم الشمسي والقمري، قال ابن كثير : « وهذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاث مائة سنة تزيد تسع سنين بالهلاليـة ، وهي ثلاث مائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال : « بعد الثلاث مائـة وازدادوا تسعاً[1] » .

ويستشكل على ما جاء في مقال دائرة المعـارف الذي نقلناه ، وكتاب جبون ، على مـا شاع على ألسنة الناس ، ونقل في أكثر كتب التفسير والتاريخ من أن اختفاء أصحاب الكهف ولجوئهم إلى كهفهم كان في عهد ديسيس الإمبراطور الروماني الذي يسميه المؤرخون العرب وعلماء المسلمين والعامة بد قيانوس ، وإنه كان نتيجة اضطهـاده للعقيدة المسيحية ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير . سورة الكهف .

وقسوته التي اشتهر بها في التاريخ ، وأن ظهور أمرهم والعثور عليهم كان في عهد ثيودوسيس الثاني الإمبراطور المسيحي المؤمن ، يستشكل على كل هذا أن الفترة بين عهدهما لا تزيد على مائتي سنة على الأكثر ، وعلى هذا الأساس تهكم «إدوارجبون» بالعدد الذي جاء في القرآن في تحديد مدة نومهم ، والتجأ بعض المفسرين القدامى ، وبعض المفسرين العصريين [1] ، – تفادياً من هذا الأشكال – إلى أن ما جاء في القرآن : «ولَبِثُوا في كهْفِهِمْ ثلاثَ مائةٍ سنينَ وازْدادوا تِسْعاً [2]» ، ليس من قول الله تعالى ومما قرره القرآن ، بل هو حكاية قول أهل الكتاب ، ومن ضمن مرائهم وتخرصاتهم ، ومتصل بالكلام السابق ، وهو قوله تعالى : « سيقولونَ ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهمْ [3] » إلى آخر ما حكى عنهم من الجدال والاختلاف ، ونسب ذلك إلى قتادة ، ومطرف بن عبد الله ، وروى فيه قراءة شاذة : « وقالوا ولَبِثوا في كهْفِهِمْ ثلاثَ مائةٍ سنينَ وازدادُوا تِسْعاً » واستدل أهل هذه المقالة بتعقيبه تعالى على ذلك بقوله : « قُلْ اللهُ أعلمُ بما لَبِثُوا ، لهُ غيبُ

---

(١) كالعلامة جمال الدين القاسمي ، في « التفسير القاسمي » ، والأستاذ أبي الأعلى المودودي ، في « تفهيم القرآن » .

(٢) سورة الكهف – ٢٥ .

(٣) أيضاً – ٢٢ .

السموات والأرض[1] » . قالوا : فلو كان ذلك تقريراً من الله لما عقب عليه بهذا التفويض إلى علم الله ، ونقل هذا التفسير عن ابن عباس أيضاً ، ولكن قال العلامة الآلوسي « ولعل هذا لا يصح عن الحبر رضي الله عنه ، فقد صح عنه القول بعدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم مع أنه تعالى عقب القول بذلك بقوله سبحانه ، « قُل ربّي أعلمُ بعدّتِهم [2] » ولا فرق بينه وبين قوله تعالى: « قل اللهُ أعلمُ بما لَبِثُوا » ، فلم دلّ هذا على الرد ، ولم يدلّ ذاك [3] ؟ .

ورده بعض كبار العلماء ، وقالوا: إن الذوق العربي السليم يأباه ، ولا يتبادر إليه ذهن القارىء، إذا لم يكن مطلعاً على هذا التأويل والتفصيل، قال الإمام الرازي: « وأما قوله« سيقولونَ ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم » فهو كلام قد تقدم ، وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر، وهوقوله: « فلا تمارِ فيهم إلّا مراءاً ظاهراً »[4] وقوله: « قلْ اللهُ أعلمُ بما لَبِثوا ، لهُ غيبُ السمواتِ والأرض » [5] ، لا يوجب أن

---

(١) سورة الكهف – ٢٦ .

(٢) أيضاً – ٢٢ .

(٣) روح المعاني ، سورة الكهف .

(٤) سورة الكهف – ٢٢ .

(٥) سورة الكهف – ٢٦ .

ما قبله حكاية ، وذلك لأنه تعالى أراد بقوله : « قلْ اللهُ أعلمُ بما لَبِثوا ، لهُ غَيبُ السموات ِ والأرض ِ »[1] فارجعوا الى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب »[2] . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « (إن) بعض المفسرين زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب ، لقوله تعالى « اللهُ أعلمُ بما لبثوا » وليس كذلك فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب ، بل ذكره كلاماً منه تعالى[3] .

إن مصدر هذا الإشكال والتناقض المفروض بين العدد الذي يقرره القرآن ، وبين العدد الذي يقرره « جبون » ، والذي يبنى على استعراض التاريخ الروماني ، هو ما اشتهر من أن حادثة اختفاء الفتية ولجوئهم إلى الكهف قد وقعت في عهد « ديسيس » الذي حكم بين سبتمبر سنة ٢٤٩م و يونيو ٢٥١م، ولعل الذي جعله بطل هذه القصة ما اشتهر عنه من قسوة ومن سفك للدماء ، واضطهاد عام للمسيحيين ، وإجبار على تقديم الذبائح والقرابين الدينية أمام رجال الحكومة المعينين، والأمر

---

(١) سورة الكهف — ٢٦ .

(٢) راجع تفسير الكبير للامام الرازي ، سورة الكهف الجزء الثالث

(٣) « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح »

بالحصول على الشهادات منهم[١]، ولكن الذي يشككك في تعيين هذا الإمبراطور ليكون مسؤولاً عن هـذه الحادثة ، وبطل القصة ، هو أن مدة حكمه كانت قصيرة جداً، لا تبلغ سنتين، وأنه قضى أكثر هذه المدة في الحروب مع القوط ، وقد مات قتيلاً بأيديهم على شاطىء نهر « الراين Rhine » في فرنسا ، ومن المحتمل أن يكون قد وجـد فرصة للقيام بجولة في المدن الشرقية اليونانية التابعة لمملكته العظيمة الواسعة ، ولم يذكر التاريخ له رحلة الى بلاد الإغريق ، والمملكة الشرقية ، وقد جاء في تاريخ المؤرخين للعـــالم ، أن مدة « ديسيس » كانت قصيرة جـداً وهادئة ، ولم يكد يتولى الحكم حتى اضطر إلى التوجه إلى « گال » لقمع ثورة قامت هناك ، وانقضت مدة حكمه كلها في الحروب مع القوط[٢] » ، وقد ذكر المؤرخون

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية ، مقال « ديسيس Deçius » ٧، ص ١٥٧ ، طبع ١٩٦٣م ، ولا يخفى على المطلع على التاريخ الروماني أن ديسيس لم يكن مخترع هذا المرسوم ولا صاحب الفكرة فيه ، بل قد سبقه « تراجان » الى ذلك بمدة طويلة ، وهو الذي أصدر هذا المرسوم وطبقه على المملكة ، وقـــد أعدم في عهده بطريق القدس وبطريق حلب لأنهما كانا مسيحيين ، راجع History of the christion Charch by George H.Dryer. p. 65 - 66.

(٢) اقرأ تفصيل الحروب والمعارك مـــع القوط ، وهلاك الامبراطور ديسيس بأيديهم في المجلد السادس لتاريخ المؤرخين ص ٤١٣ .

(The Historian's History of the world. Londou. (1908) vol vl p. 413.)

أسماء أولئك القادة المسيحيين الذين عاقبهم الإمبراطور على عدم خضوعهم لمرسومه ، ولم يذكروا فيه أصحاب الكهف ، ولم يكن عدد الذين عوقبوا من المسيحيين كبيراً ، فقد ذكر « جبون » نفسه « أن عدد المعاقبين والمعذبين لم يتجاوز عشرة رجال وسبع نساء »[١] .

ثم إن حادثة اختفاء رهط من المسيحيين حادثة محلية لم تكن من الأهمية في وقت حدوثها بمكان يلفت إليه أنظار المؤرخين ، ويحرص على تدوين تاريخها المؤلفون بخلاف يقظتهم من هذا النوم الطويل الخارق للعادة ، وخروجهم إلى البلد ، وانتشار صيتهم في الآفاق ، وبعد أن تدوّي الأوساط الدينية بخبرهم ، فوقوع هذه الحادثة الثانية ، حادثة انتباههم من النوم ، وانتشار خبرهم في العالم المسيحي في عهد ثيودوسس من الحوادث المستفيضة المدوّية في الآفاق الشاغلة للنوادي والمحافل ، التي يحرص المؤرخون على تدوينها وتسجيلها ، ويتنافس النقلة والرواة في نقلها وحكايتها ، فنرجح أن حادثة الاضطهاد والاختفاء وقعت في عهد الامبراطور هادرين[٢] (Publius

(١) « سقوط روما وانحطاطها » لجبون الجزء الثاني ص ٩٨ .

(٢) حكم هادرين من سنة ١١٧ م الى ١٣٨ م ، وقد ولي الحكم بعد « تراجان » ، وقد أقره المجلس في شهر أغسطس سنة ١١٧ المسيحي ، واجتهد في أن يعيد إلى المدن اليونانية نضارتها الزائلة ، وأقام سداً على الحدود الرومية ، وقد قام اليهود في سنة ١٣٢ بثورة قمعها، وظهرت =

Hadrian (Aelius Hadrinus) الذي حكم طويلا ، ويذكر التاريخ أنه قام بجولة في الولايات الشرقية ، دامت من ١٢٩ م الى ١٣٤ م ، ولا يلزم أن هـــذا الاضطهاد قد وقع على يده مباشرة أو بإيعاز منه ، ولا يلزم كذلك أن يكون قد علم به

=القسوة في قمع هذه الثورة ، والتغلب عليها وأمر بإجلاء اليهود ، فكان لا يسمح ليهودي بالدخول في القدس إلا مرّة واحدة في السنة، ومن ذلك العهد تحقق جلاء اليهود في شكل مستمر. (دائرة المعارف لتاريخ العالم ج - ٢)

وقد قام في سنة ١١٩ م بجولة رسمية في آسيا الصغرى، وسوريا، وعقد مجلساً في « سمرنا » دعا إليه ملوك الشرق وأمراءه ، وقضى فصل الشتاء في «حلب» ، وتوجه في سنة ١٣٠ م إلى الجنوب ، وأمر بانشاء مدينة على أطلال مدينـة « قدس » ، ثم وصل إلى مصر عن طريق بلاد العرب ، واضطر إلى العودة إلى « فلسطين » في سنة ١٣٣ م ، حيث قـــاد حركة القضاء على ثورة اليهود ، ثم أسند القيـــادة إلى القائد المعروف جيوليس سيورس (Julius Severus) وعاد إلى« رومية » ، ومات الإمبراطور في Baiae في عاشر تموز سنة ١٣٨ م .

« إن حيـــاة هادرين مجموع متناقضات وأضداد » (دائرة المعارف البريطانية ج ١١) .

وقد جـــاء في كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » لصاحبه George H. Dryer « أن هادرين وإن كان يختلف عن الرومان القدماء ، « كان تقدمياً » ومتفحصاً في الأمور الدينية ومتشككاً فيها ، وإن كان قد أشار بالعدول عن التهمة الاجتماعية ، والرمي بالزندقة بالاطلاق ، ولكنه بقي محافظاً على سياسة « تراجن » في إجبار « الزنادقة والمارقين » (وجلّهم مسيحيون) على تقديم الذبائح والقرابين للآلهة ، والتمسك بالديانة الوثنية الرومية » ص - ٦٦ .

وارتضاه ، فقد اتسعت الإمبراطورية الرومية في ذلك العهد اتساعاً كبيراً ، وانتشر الولاة والحكام في ولاياتها ومدنها، فمن المعقول جداً أن يقوم أي حاكم أو وال بعملية اضطهاد ديني أو مطاردة دينية وفقاً لاتجاهه الخاص وحماسه الديني ، أو تطبيقاً لسياسة الدولة العامة إزاء الديانة الحديثة وتتخطى في ذلك الحدود ، وهذا يقع في كل حكومة وعهد ، فإذا قررنا أن اضطهادهم واختفاءهم كان في أثناء هذه الجولة ، وظهورهم في عهد ثيودوسس ، لم يكن هناك تفاوت كبير بين عدد المسيحيين وعدد القرآن ، ولم يكن هناك أساس لتهكم « جبون »، فإن بداية هذه القصة ونهايتها لا تعرفان بالتحديد الزمني الدقيق ، وقد اضطربت أقوال المؤرخين السوريين ، والمؤرخين الإغريق في تعيين سنة اليقظة والخروج، فالمؤرخون السوريون يزعمون أنها ٤٢٥ م أو ٤٣٧ م ، وتقول الروايات الإغريقية ، أن الخروج كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكم « ثيودوسس » الثاني[١] ، معنى ذلك أنها كانت في سنة ٤٤٦[٢] ، ونؤمن بأن القرآن الذي جاء مهيمناً على الكتب السابقة، أحق من التعويل والاعتماد من هذه الروايات المضطربة، والأساطير والمصادر ، التي كانت عرضة للتغيير والزيادة

---

(١) راجع « جبون » .

(٢) حكم ثيودوسس من ٤٠٨ م الى ٤٥٠ م .

والنقص ، وقد ظهر الاضطهاد الديني للمسيحية في شكل سافر من عهد نيرون (٦٤ م) ، واستمر إلى أن كانت المسيحية ديانة أباطرة الروم بشكل عام ، واعتنق قسطنطين النصرانية في القرن الرابع المسيحي ، ولا يزال تاريخ المسيحية الأول يكتنفه الشيء الكثير من الغموض لغربتها وضعفها ، ويعوزه التدوين التاريخي الذي يعتمد عليه .

وطبيعة اختفاء جماعة قليلة العدد في مدينة صغيرة لم تحتل المكانة الأولى المرموقة ، في المملكة ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الظهور الذي اقترن به عناصر الغرابة الكثيرة في عهد ملك يدين بديانتهم ، ويقدر هذا الحادث كل تقدير في زمن أصبحت فيها عقيدة الحشر والنشر ، والحياة بعد الموت موضوع جدال عنيف ، ونقاش كبير ، واشتدت الحاجة فيه إلى برهان ساطع على إمكانه ووقوعه ، فنهاية هذه القصة وتحديد العهد الذي انتبه فيه أصحاب الكهف واشتهر أمرهم ، لا يقبل شكاً ولا مراءاً ، فقد عرفت الطبيعة البشرية بالحرص على الاحتفاظ بمثل هذه الحوادث الجسام وتتبّعها ، وتتوافر الدواعي الدينية والعاطفية ، والعقلية على تحقيقها وتسجيلها للأجيال القادمة بخلاف بداية هذه الرواية ، ومقدمة هذه الحادثة ، والله أعلم بحقيقة الحال .

حكمة اختيار القرآن لهذه القصة: تمسك المفسرون في سبب ورود هذه القصة الغريبة في القرآن، بما رواه محمد بن إسحاق عن بعث قريش وفد منهم إلى أحبار يهود بالمدينة وسؤاله إياهم عن أسئلة يختبرون بها صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واتصاله بالسماء، فاختاروا لهم أسئلة فيها سؤال عن أصحاب الكهف [1]، وهذه الرواية إن صحت، فليست

---

(١) قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، قال حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، قال حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس، قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفة، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فإنه نبي مرسل، فإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبأه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم عن ذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم =

هي السبب الرئيسي ، والسبب الوحيد لاختيار القرآن لهذه القصة ، من بين قصص الاضطهاد الكثيرة، والقصص الغريبة ، التي لا سبيل إلى معرفتها ، والإخبار بحقيقتها إلا الوحي، وأن قصص أسباب النزول ، وإن أفاض فيها المفسرون ، وعُني بها العلماء المتقدمون العناية الكبيرة ، لا تحتلّ المكانة التي أحلّها فيها كثير من العلماء ، وقد كان في مقاصد الاصلاح والتعليم التي جاء لتحقيقها القرآن ، وفي البيئة الفاسدة الموبوءة التي بعث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، نزل فيها القرآن ، وفي طبيعة البشرية التي لا تختلف اختلافاً كثيراً، وفي الأزمان والبيئات التي تتوالى وتتجدد، والحوادث التي تتعاقب وتتكرر، وفي الأجيال البشرية التي سيخاطبها القرآن ، وتقودها النبوة المحمدية على اختلاف الأعصار والأمصار ، كان في كل ذلك

= رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبركم غداً بما سئلتم عنه ، ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة فيها أصحاب الكهف معاتبة إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (ابن جرير الطبري ج - ١٥ ، ص ١١٨ - ١١٩) .

دواعٍ أقوى وأحق بالاستجابة ، وأسباب أظهر وأجدر بالاهتمام من سؤال طائفة ، أو امتحان جماعة ، ومن قصة يرويها بعض الرواة في سبب نزول آية أو سورة . يعجبني في ذلك ما قاله شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ، في كتابه الفريد « الفوز الكبير » في أصول التفسير ، قال رحمه الله :

« وعامة المفسرين يربطون كل آية من آيات المخاصمة، وآيات الأحكام بقصة ، ويعتقدون أن تلك القصة كانت سبب نزولها، والمحقق أن الغاية الأساسية من نزول القرآن ، هي تهذيب النفوس البشرية، والقضاء على العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة، فوجود العقائد الباطلة في المكلفين سبب مستقل لنزول آيات المخاصمة ، ووجود الأعمال الفاسدة وانتشار المظالم فيما بينهم سبب كافٍ لنزول آيات الأحكام ، وعدم انتباههم وازدجارهم بما جاء في القرآن من ذكر آلاء الله ، وأيام الله، وما يقع عند الموت وبعده ، علة حقيقية لنزول آيات التذكير . أما القصص الجزئية ، والحكايات المعينة التي أتعب المفسرون نفوسهم في نقلها ، وأطالوا النفس في ذكرها ، والحديث عليها ، فليس لها دخل كبير ، ولا أهمية ذات بال ، إلا في بعض الآيات ، حيث وقع التعريض فيها لحادثة من الحوادث وجدت في زمنه صلى الله عليه وسلم ، أو قبل ذلك ، ولا يزول ما يعرض

للسامع من التشوف عند سماع ذلك التعريض إلا ببسط هذه القصة [١] .

وقد جاءت هذه القصة في أوانها ومكانها ، فقد كان المسلمون في مكة يواجهون نفس الأوضاع التي واجهها الفتية في أوج الاضطهاد والاستبداد في عهد القياصرة ، وكانوا يعيشون في فترة تشبه الفترة التي عاش فيها الفتية المؤمنون قبل أن يغادروا البلد ، ويلجئوا إلى الكهف، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن ، « واذكُروا إذْ أنتمْ قليلٌ مُسْتضعفونَ في الأرضِ ، تَخافونَ أنْ يتخطّفكم الناسُ [٢] » ، ودواوين الحديث ، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم والقسوة ، والتعذيب والتنكيل ، وتحكي من أخبار محنة بلال ، وعمار ، وخباب، ومصعب، وسميّة وأصحابهم ما تقشعرُّ منه الأبدان، ويشمئزّ منه الوجدان ، ويصور القرآن والسيرة الجو الرهيب الخانق ، الذي أحاط بالمسلمين في مكة ، الجو الذي لا تظهر فيه بارقة أمل، ولا يتفتح فيه منفذ يدخل منه النور والهواء، فكأنهم كانوا بين طبقي الرحى ، وفي براثن الأسد الضاري ، ولا تعبير أدقّ من التعبير القرآني، « حتّى إذا ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رَحبتْ ، وضاقتْ عليهمْ أنفسُهمْ وظنّوا أنْ

(١) منقولاً الى العربية عن الأصل الفارسي .

(٢) سورة الأنفال – ٢٦ .

لا مَلْجأَ مِنَ اللهِ إلا إليهِ »[1]، هنالك ينزل الوحي، ويقص عليهم القرآن قصص الفرَج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والعزّة بعد الذلّ، ونزول نصر الله من فوق سبع سموات خارقاً للعادة، مكذباً لكل قياس، هادماً لكل تجربة، متحدياً لكل عقل، كيف أدال الله قلّة مؤمنة، وحفنة من البشر، مجردة من كل قوة وسلاح، من الكثرة الكاثرة، الكافرة الفاجرة، الظالمة الغاشمة، المالكة للحول والطول، المستحوذة على القوى والطاقات، والذخائر والوسائل، وكيف أخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وأطلع النور من الظلمة، وجعل من الأعداء القاتلين الذين ولغوا في الدماء، وأكلوا الأكباد، حماة حارسين، وآباء مربّين، وكيف ورث الابن المؤمن الأب الكافر.

شبه بين الممتحنين في مكة وأصحاب الكهف: فقصّ الله في هذه الفترة الرهيبة، التي يستولي فيها اليأس والتشاؤم، وتزيغ فيها الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، قصة يوسف مع إخوته، وقصة موسى مع فرعون، وهي قصة فرد وجماعة، وقصة نبي وأمّة، وقص عليهم قصة أصحاب الكهف مع الملك الجبار، والسلطان الطاغية، وهي قصص تختلف عصورها

---

(١) سورة البراءة: ١١٨، نزلت الآية في الثلاثة الذين خلفوا، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن ربيع، والآية مدنية.

وبيئاتها وتختلف فيها الأشخاص الذين تدور حولهم القصة ، وتتفق في غايتها ، وتتشابه في نهايتها ، وتلتقي على نقطة واحدة ، وهي الإرادة القاهرة، التي تنصر المؤمن على الكافر ، والبرّ على الفاجر ، والمظلوم على الظالم، والضعيف على القوي ، والفقير على الغني ، بطرق تحار منها الألباب ، وتشده بها العقول ، يؤمن بها الكافر ، ويوقن بها المتشكك ، فيقول في آخر قصة يوسف : « لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لأولي الألباب ، ما كانَ حَديثاً يُفتَرى ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يُؤمنونَ[1] » ، وقال في آخر سورة هود : « وكلاًّ نقصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ الرُّسلِ ماتُثبتُ بهِ فؤادَكَ وجاءَكَ في هذهِ الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنينَ »[2] .

وما أشبه المسلمين في مكة بالفتية المؤمنين الذين لجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم من الفتن ، فبقوا فيه إلى أن قلّب الله الليل والنهار ، وانقرضت الدولة الكافرة المضطهدة لأهل الإيمان والعقيدة ، وطوى بساطها ، وجاء على عرش روما — الذي اقترن قروناً طوالاً بالحكم الوثني المشترك ، والملك المضوض الفاجر — من يحمي ديانة المسيح ودعوته ، ويفتخر

(١) سورة يوسف — ١١١ .

(٢) سورة هود — ١٢٠ .

بالنسبة إليها ، وحمل رايتها ، ويقدّر كل من أبلى فيها بلاءاً حسناً ، ويحيطه بهالة من الإجلال والتكريم ، والحب والتعظيم ، وكذلك عاش المسلمون في مكة ما عاشوا ، متمسكين بدينهم ، كأنهم قابضون على الجمر ، واقفون على الرضف ، حتى جاء الفرج ، وأذن لهم بالهجرة ، فرجعوا إلى حصن حصين ، وكهف متين ، هي مدينة يثرب ، ولكن الله أراد بهم أكثر مما أراد بالفتية المؤمنين ، اللاجئين إلى الكهف في القرن الثاني المسيحي ، أراد أن يظهر بهم دينه على الدين كله . « هوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَهُ على الدّينِ كلّهِ ولو كرهَ المُشركونَ »[1] ، وقرن البعثة المحمدية – وهي الرسالة الأخيرة التي ُختمت بها الرسالات – ببعثة أمّة ، فقال : « كُنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخْرِجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتنْهونَ عن المنكر وتؤمنونَ باللهِ »[2] ، ويقول الرسول : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين »[3] ، فلم يكن يجدر بهذه القلة المؤمنة كهف ضيق محدود يبقون فيه بعيدين عن الحياة ، عاجزين عن كل نشاط ، وعليهم تقوم الدعوة ويتوقف مستقبل الانسانية ، وهم ملح الأرض – في لغة المسيح عليه السلام – والبذرة التي ينبت بها الزرع الكريم ،

---

(١) سورة التوبة – ٣٣ .

(٢) آل عمران – ١١٠ ،

(٣) رواه الترمذي : عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الذي فيه حياة الإنسانية ، وقيام للناس ، فهي أكرم على الله من أن تضيع ، وتقام بعد اليقظة ، وتنطوي في العزلة ، فهي تدعو إلى دين الله ، وتكافح الباطل وتقاومه ، وتجتهد لترفع الظلم عن الإنسانية كلها ، ولتكون كلمة الله هي العليا، « حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله »(١) .

وقد خرج رائد « أصحاب الكهف » فوجد الناس غير الناس ، والمدنية غير المدنية ، والدين غير الدين ، وجد دينه هو الذي يحكم ويسود ، وعقيدته هي التي تكرّم وتشرّف ، وكذلك لمّا خرج المهاجرون من المدينة إلى مكة استقبلتهم بغير الوجه الذي كانت تستقبلهم به ، وإذا براية الاسلام تخفق وتعلو ، ومفتاح الكعبة بيد الرسول يضعه حيث يشاء ، وإذا بالناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، وإذا بالإسلام هو مصدر كل شرف وكرامة، وإذا بالوثنية هي موضع كل ذلّ وإهانة ، وإذا بطرداء الأمس هم سادة الناس ، وأساتذة الخلق في كل شيء ، فما أشبه قصة أصحاب الكهف بقصة أهل مكة المؤمنين ، والفتية المهاجرين مع فرق يسير ، اقتضته طبيعة الاسلام وحاجة الإنسانية .

---

(١) سورة الأنفال — ٣٩ .

التاريخ يعيد نفسه مرة بعد مرة : وقد كتب الله لهـذا الدين الخلود، ولهذه الأمة البقاء، والانتشار في العالم ، فاستلزم ذلك أن تمر بجميع المراحل التي مرت بها أمم كثيرة في عهود كثيرة ، وأن تواجه دعوتهـا جميع المراحل الطبيعية ، التي تحتوي عليها الحياة الإنسانية ، من ضعف وقوة ، وقلةوكثرة، وفتح وهزيمة ، وموافقة ومعارضة ، وكثيراً مـا تتعرّض جماعات تقوم بالدعوة وتستقيم على العقيدة لاضطهاد فظيع ، وتعذيب وتنكيل ، ونفي وتشريد، وقد يكون ذلك في ظل حكومات كافرة ، وقد يكون ذلك في ظـل حكومات تتسمى بالاسلام ، ويقودها رجال ينطقون بكلمة التوحيد ، ويبنون المساجد ، ويقيمون الموالد والمهرجانات الدينيـة ويحتفلون بالأعيـاد الاسلامية ، والشعائر الدينية ، ولكنهم أحياناً يعتبرون الدعوة الاسلامية ، والعقيدة الصحيحة ، أكثر خطراً وأعظم ضرراً ، على كيانهم ومقاصدهم ، من الدعوات الجاهلية ، والخرافات الوثنية ، والأفكار الهدامة، والفلسفات الملحدة ، فتعود قصة الكهف في أرض الاسلام من جديد ، ويبدأ الصراع بين القلة المؤمنة الضعيفة ، والكثرة « المنافقة » القوية، وهنالك يجد هؤلاء الفتية روحاً ونوراً في قصة أصحاب الكهف: « إنـّهم فتية ٌ آمنوا بربّهم ْ وزدناهُمْ هُدى ورَبَطْنا على قلوبِهِم إذْ قامُوا فقالُوا ربّنا ربُّ السمواتِ والأرْض

لنْ ندعوَ مِنْ دونِهِ إلهاً لقدْ قلْنا إذاً شطَطا »[1] . وقد تشتد هذه الحال ، ويضيق الخناق ، ويستحيل الجمع بين الحياة والحرية ، وبين الإيمان والعقيدة ، فلا تبقى للمسلمين حيلة إلا الفرار من المجتمع ، واللجوء إلى العزلة ، وتلك حالة لا تعرض إلا في أحقاب متطاولة ، وأزمات نادرة ، ولكن لسان النبوّة قد أنبأ بذلك ، لأن النبوة المحمدية ، هي نبوة الأزمان كلها ، وهي المرشدة في الأحوال كلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع به شعف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن[2] » ، وهنالك تغيثه سورة الكهف ، وتنير له الطريق .

والآن ، استعرض قصة أصحاب الكهف في ضوء القرآن ، وفي اطار قصص واسع تلمس فيه الحياة ، وتستوحى منه العبرة والعظات .

دولة الوثنية والخلاعة : في مدينة من المدن الرومية الكبرى – إذا شئت سمّيتها أفسس أو أفسوس – في فجر التاريخ المسيحي ، بلغت المادية ، وما يتبعها من الوثنية السافرة ، والأبيقورية الوقحة أوجها وزهوها وقد شهد التاريخ بأن

---

(١) سورة الكهف – ١٣ – ١٤ .
(٢) رواه البخاري : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الوثنية تقترن بها الخلاعة والشهوانية دائماً ، كأن بينها عهداً وحلفاً، كذلك كان في الهند القديمة كما دلت الآثار والحفريات، وكذلك كان في يونان ومصر ، وجزيرة العرب في الجاهلية ، واستهترت الحكومة ورجالها في عبادة الأصنام ، وعبادة الشهوات ، وعبادة المادة والقوة ، وانطلقت موجة عنيفة من الوثنية والشهوانية، جرفت كل القيم الروحية والخلقية، وأصبح المجتمع — في هذه العاصمة — مجتمعاً مادياً محضاً ، لا يدين إلا بالمظاهر والمحسوسات ، ولا يؤمن إلا باللذات العاجلة ، والمنافع الحاضرة ، واستولت الحكومة — بطبيعة الحال — على جميع وسائل المعيشة والرفاهة في حدود المملكة، وأصبحت مصدر الرخاء والثراء، والمجد والشرف، وأصبح اتباع عقيدتها واتجاهها ، وتقليد رجالها ، القنطرة الوحيدة للوصول إلى الحكم والغنى ، والمجد والشرف ، والتفَّ حولها « الانتهازيون » وأصحاب الطموح من كل جانب ، وأصبح الناس طرازاً واحداً ، أو قطعة واحدة ، من عبّاد الشهوات ، وعشاق المناصب والوظائف ، وهواة الإقطاعات والولايات .

وألحت الحكومة ، وأسرفت في تطبيق عقيدتها وفرض اتجاهها على أهل البلاد، وتتبعت كل من يخالفها في دين الوثنية، واتجاه الإباحية ، والتمتع بالحياة ، فحرمته نعمة الحياة ، وسلبته حقوقه المدنية ، فأصبحت الحياة في هذه البلاد أسلوباً واحداً ، وصبغة واحدة من الخرافة والخلاعة ، لا يحتمل

اختلافاً في اللون ، أو تنوعاً في العقيدة والأخلاق ، وأصبح الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ، وأعمارهم ومدارك عقولهم نسخة واحدة من كتاب مطبوع في مطبعة متقنة .

ثوار مؤمنون : في هذه الدولة الوثنية الجائرة ، وفي هذا المجتمع المتهتك الخليع ، وفي هذا المحيط الضيق المطبق ، وفي هذا الجو القاتم الخانق ، وجد رهط من الناس تسرّبت إليهم دعوة المسيح – عليه الصلاة والسلام – فصادفت منهم عقولاً واعية وقلوباً خاشعة ، وضمائر حيّة ، ففتحتها وملكتها ، وشغلت من نفوسهم كل مكان ، ومن قلوبهم وتفكيرهم كل جانب ، وأصبحت لهم إيماناً وعقيدة ، ولذة وقوة ، وبداهة ويقيناً ، فأصبحوا لا يعيشون بغيرها ، ولا يبيعونها بأكبر ثمن في العالم ، ولو كان هذا الثمن نفوسهم وحياتهم .

ومن هنا بدأ الصراع ، بدأ ذلك في نفوسهم أولاً ، ثم في الخارج ثانياً ، وكذلك الصراع يبدأ دائماً في النفوس ، لقد اتجهوا اتجاهاً معارضاً للحكومة والمجتمع ، فالحكومة وثنية ، لا تقبل إلا الوثنية ، والمجتمع خليع لا يرضى إلا بالخلاعة ، ولا حياة – فضلاً عن الحكم والغنى – إلا بالحكومة والمجتمع ، إن فلسفة الأسباب والمسببات ، وإن دراسة المدنية والمجتمع ، وإن واقع الحياة. كل ذلك يفرض عليهم أن يخضعوا للحكومة والمجتمع ، فلا شبع من غير طعام ، ولا طعام من غير مال ،

ولا مال إلا عند الحكومة ، ولا شرف ولا سمعة إلا بالجاه ، ولا جاه إلا بالوظيفة ، ولا وظيفة إلا عند الحكومة ، ولا هدوء ولا سلامة إلا بمسايرة الناس وموافقة المجتمع، ولا موافقة إلا باتباع العقيدة السائدة والاتجاه العام ! هذا هو المنطق المادي يقوم على المشاهدة والتجربة ، وهذه طبيعة الأشياء .

ولكنهم يعارضون هذا المنطق « السليم » كما يسميه أنصاره ، ويستوحون إيمانهم وعقيدتهم ، فتجاوز نظرتهم النافذة المشهود الموجود ، ويتمثل أمامهم ما وراء هذا الشهود ، فيرون أن وراء هذه الأسباب التي استولت عليها الحكومات واستحوذ عليها المجتمع سبباً اخر ، وهو الإرادة الإلهية التي خلقت هذه الأسباب ، وهي التي تسيرها من وراء الستار ، فمن أيدته هذه الإرادة القاهرة ، لم تؤثر فيه هذه الأسباب وأربابها ، ولم يحتج إلى أصحابها ، وسخّر الله له الأحوال والأوضاع ، وجعلها مطابقة لحاله وحاجته ، وهيّأ له من أمره رشداً ومرفقاً ، وآتاه من لدنه رحمة ونعمة ، فلا حاجة إلى الخضوع إلى الأسباب الظاهرة ، والإستكانة إلى أصحابه الضعفاء الفقراء ، ولا بد من الثبات على العقيدة .

وهنا ينتصر الإيمان على التفكير المادي ، ويغلب المنطق الإيماني على المنطق البرهاني ، وذلك موضع الاعتبار في القصة ، ومفتاحها : « إنّهمْ فتية ٌ آمنوا بربِّهمْ وزدْناهم هدىً

ورَبَطْنا على قلوبِهِمْ إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض لنْ ندعوَ منْ دونه إلهاً لقدْ قلْنا إذاً شططاً ، هؤلاءِ قومُنا اتّخذُوا منْ دونِه آلهةً لولا يأتونَ عليهمْ بسُلْطانٍ بيِّن ، فمَنْ أظلمُ ممَّن افْترى على الله كذباً[1] » .

حياة من غير عقيدة ، أو عقيدة من غير حياة : ولكن ما هو السبيل إلى البقاء على العقيدة ، وقد ضاقت الأرض على أهل الإيمان بما رحبت ، وجعلت الحكومة البلاد عليهم كفّة حابل ، وسدّت في وجوههم أبواب الرزق والحياة ، فإما حياة من غير عقيدة وخلق ، وإما عقيدة من غير حياة وحرية .

وهنالك يسعفهم الإيمان ، وينير لهم الطريق ، ويقنعهم بأن في أرض الله سعة ، وفي نصرة الله ثقة ، وأنهم ليسوا مضطرين – بعد ما تخلوا عن اللذات والمطامع – إلى البقاء في هذه القرية الظالم أهلها ، وجرى على لسانهم : « وإذ اعتَزَلْتموهمْ وما يَعْبدونَ إلا الله فأوُوا إلى الكهْفِ ينشر لكمْ ربُّكمْ منْ رحمتِهِ ويهيّئْ لكمْ منْ أمرِكمْ مِرفقاً »[2] .

---

(١) سورة الكهف – ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة الكهف – ١٦ .

منهج الصواب في حياة الانسحاب : لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله على وجوههم ، ويمضي كل أحد منهم لسبيله ، أو يأوي كل فرد منهم إلى مغارة أرض ، أو قلة جبل ، كما فعل المسيحيون في عصر رهبنتهم وانحطاطهم ، ولكن الله ألهمهم أن يخرجوا مجتمعين ، فارّين بدينهم وعقيدتهم ، لاجئين إلى الله ، منتظرين منه الفرج القريب ، والنصر المبين ، وهذا هو منهج الصواب ، والطريق الأقوم ، كلما ضاقت على أهل الإيمان الأرض ، وانسدت في وجوههم الأبواب ، وأشرف إيمانهم ودينهم على خطر وضياع .

جائزة الايمان والفتوّة والفرار إلى الله : ثم ماذا كان ؟ لقد حققوا فيهم صفة الإيمان والفتوة ، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية ، والتأييد الربّاني : « إنّهم فتيةٌ آمنُوا بربّهم »[1] ، فحقق الله لهم جميع مواعيده : وعد الزيادة في الهداية ، ووعد التثبيت ، « وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم »[2] ، وما أحوج المؤمن المهاجر ، الثائر على مجتمعه وبيئتـه ، الثائر على القوة القاهرة والحكم المطلق إلى الهداية

---

(١) سورة الكهف - ١٣ .

(٢) سورة الكهف - ١٣ .

والتثبيت ، وإلى أن يربط الله على قلبه الخفاق ، ونفسه المضطربة ، وقد أنجز الله وعده في هؤلاء الفتية الكرام ، فزادهم هدى، وربط على قلوبهم، وأخرج منها الجبن والخوف، والحيرة والاضطراب، وملأها شجاعة وسكينة، وقوة ويقيناً، وفرحاً وسروراً ، ورضاً بالله وأفعاله ، وذلك زاد المهاجر في سبيل الله ، وسلاح المجاهد في سبيل الله ، الثائر على عصره ، المتمرد على بيئته .

ثم ماذا كان ؟ لقد خرجوا من البلد ، تاركين المدنية وزخارفها وراءهم ، نابذين أسباب الحياة ، قد غادروا وطنهم العزيز ومساكنهم الكريمة – فالظاهر أنهم كانوا من بيوت رفيعة ، ومحتد كريم [1] – فكان جزاء ذلك ، أن هداهم الله إلى كهف واسع صحّي [2] ، ولا تستطيع المنظمات الكبيرة أن تبني مثل هذه الكهوف ، والملاجيء الواسعة ، النظيفة الصحيّة ، فكان شأنه أن يستفيد من منافع الشمس – وهو

---

(١) قال الألوسي في تفسيره : أنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم » ، روح المعاني - ج ٥ – ص ١١ .

وقد مرّ نقلا عن دائرة المعارف للأخلاق والديانات : « أنهم كانوا من أبناء البلاط وكانوا يسكنون في السرائي ».

(٢) في لسان العرب: « الكهف كالمغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها، فاذا صغر فهو غار »، وفي الصحاح :« الكهف كالبيت المنقور في الجبل»

النور والدفء – ويسلم من مضارها ، وهي الحرارة الزائدة ، ويدخله الهواء النقي فيضفي على أهله الحياة والنشاط : « وَتَرى الشمسَ إذا طَلَعَتْ تزاورُ عَنْ كهفهِم ذاتَ اليمينِ وإذا غربَتْ تقرِضُهم ذاتَ الشِّمالِ وهم في فَجوةٍ منْهُ »[1] .

وهكذا انقطعت صلتهم عن المدنية الدنسة المتعفنة وعن أصحابها الغاشين الفاسقين واتصلت بأسباب الحياة البريئة ، والعالم النقي الخارجي ، فكانوا يعيشون في عزلة عن العالم ، متمتعين بخيراته ومنافعه ، وليس ذلك إلا جزاء الإيمان الراسخ والجهاد الصادق ، ومن تيسير الله وحده وهدايته ، « وذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد[2] » .

لقد حاول الثائرون على نواميس الله وشرائعه ، وعلى الطبيعة ، وبذلوا جهدهم ومواهبهم ، وعلومهم وذكاءهم في الحصول على حياه رخية ، صافية هنيئه ، وسخروا لأنفسهم القوى الكونية ، وأخضعوا لهم أسباب الراحة والرخاء ،

---

(١) سورة الكهف – ١٧ ، في روح المعاني: « انهم كانوا لا تصيبهم الشمس أصلا فتؤذيهم ، وهم في وسط الكهف بحيث ينالهم روح الهواء ، ولا يؤذيهم كرب الغار ، ولا حر الشمس (ج ٥ ص ٢٠) وفي تفسير الرازي : أن باب الكهف كان مفتوحاً الى جانب الشمال ، فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، واذا غربت كانت على شماله(ج ٥ ص ٤٦٦)

(٢) سورة الكهف – ١٧ .

وهناء البال، فحرموا النتيجة، وثارت عليهم الحياة والطبيعة، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأصبحوا فريسة اكتشافاتهم ووسائلهم وفريسة الأمراض الطريفة والمشاكل الغريبة، والحروب المدمرة، « ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلنْ تجدَ لهُ وليّاً مُرْشِداً [(١)] ».

الحياة في كهف الايمان : ويظهر انهم لم يقضوا حياتهم في هذا الكهف الإيماني في بطالة وتعطل، ولم يكونوا هنالك في ظلام وعمىً، ومن غير دستور وهداية، والظاهر انهم أخذوا معهم بعض الصحف والأوراق المكتوبة، ولعلها صحائف من التوراة والانجيل، وأثارة من علوم الأنبياء وتعاليمهم، احتفظوا بها عند خروجهم من المدينة [(٢)]، وليكن ذلك

---

(١) الكهف – ١٧.

(٢) القرآن يسميهم بأصحاب الكهف والرقيم، وقد ذهب المفسرون في تفسير الرقيم مذاهب، فمن قائل انه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف، وأمرهم أو أسماءهم، ثم وضع على باب الكهف، ومن قائل انه اسم قرية أو بلد، وقد اختار العلامة الكيلاني في مقالته: «انه الكتاب المرقوم الذي كان رفيقهم في الكهف» ويؤيده ما نقله صاحب روح المعاني عن ابن عباس رضي الله عنه قال: انه كتاب كان عندهم، فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام (ج ٥ – ص ١١٠) وهو مختارنا، وروى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال « الرقيم الكتاب ولذلك الكتاب خبر فلم يخبر الله عن ذلك الكتاب وعما فيه وقرأ: « وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون » (ج ١٥ ص ١٢٢)، وقال الامام البخاري: الرقيم: الكتاب. مرقوم: مكتوب من الرقم. (صحيح البخاري ج ٢، كتاب التفسير سورة الكهف).

دستور جميع الثائرين على بيئتهم ومجتمعهم المهاجرين اللاجئين، المضطرين إلى الفرار والعزلة، إذا كان لا بـــد من الفرار والعزلة.

ولما نفد زادهم الذي حملوه، سلّط الله عليهم نوماً هنيئاً، عميقاً طويلاً، لم يحتاجوا معه إلى طعام وشراب؛ « فضَرَبْنا على آذانِهمْ في الكهفِ سنينَ عَدَداً [1] ».

تغيير الأوضاع في روما: وهنـــا تظهر المعجزة الكبرى من معجزات قصة أصحاب الكهف، ففي مـــدة نومهم، واعتزالهم في الكهف، تغيرت الأوضاع في البلد، في مملكة روما وتوابعها، فانقرضت دولة الوثنية والخلاعـــة، وطوي رجالها وأصحابها في تقلبات الزمان، وقامت على أنقاض هذه الدولة الوثنية، الخليعـــــة، دولة تؤمن بالله، وبالمسيح [2]،

---

(١) سورة الكهف — ١١ .

(٢) كان ذلك في عهد قسطنطين « الكبير » الذي تولى الحكم في سنة ٣٠٦ م، وقد تنصر (وفق الرواية الشائعة، فيشك كثير من الباحثين في اخلاصه وسلامة نيته في قبول الدين الجديد، ويردون ذلك إلى المصالح السياسية) وهو الذي جعل النصرانية دين الدولة الرسمي، وعقد مجالس عظيمة حضرها كبار الأساقفة والقسوس بتوحيـــد العقيدة النصرانية، والقضاء على الخلافـــات والمذاهب المتناحرة، وهو الذي اختط مدينة قسطنطنية في ٣٣٠ م، التي اشتهرت باسمه وجعلها عاصمة الدولة، ومات في ٣٣٧ م.

وتنتصر للدين الجديد الذي حاربته الحكومة الماضية طويلاً ، وطاردت أتباعه ورجاله ، وتجل كل من انتمى إلى هذا الدين، وترحب بكل من يدين بهذه العقيدة .

وهنالك يبعث أصحاب الكهف من رقدتهم الطويلة التي استغرقت ثلاثة قرون وزيادة ، « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً[1] » ، ويتساءلون بينهم عن مدة هذا النوم ، فيختلفون في التقدير والتحديد ، ثم يكلون أمره إلى الله ، لأنه ليس من مهمات الدين والدنيا ، « قالَ قائِلٌ منهمْ كمْ لبثْتُمْ ، قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ ، قالُوا ربُّكم أعلمُ بما لَبِثْتُمْ[2] » .

وحينئذ يشعرون بالجوع، فينتدبون أحدهم ليأتي لهم بطعام زكي[3]، ويرسلونه مع النقود الفضية التي حملوها من مدينتهم ، «فابْعَثُوا أحدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هــذهِ إلى المدينةِ فلينظرْ أيُّها أزْكى طعامــاً فليأتِكمْ بِرزقٍ منهُ[4] » ، ويوصونه

---

(١) سورة الكهف — ٢٥ .

(٢) أيضاً — ١٩ .

(٣) فسر الامام الرازي قوله تعالى : « أيها أزكى طعاماً » بقوله : « أيها أطيب وألذ » ، وقال هذه الآية تدل على أن السعي في امساك الزاد أمر مشروع ، وانه لا يبطل التوكل» .

(٤) سورة الكهف — ١٩ .

بالاحتراس من فشو السرّ وبالتلطف ، لأنهم لا يزالون يعتقدون أن الدولة للأعداء ، وأن شرطة الحكومة ، ورجال المخابرات بالمرصاد ، « وليتلَطّفْ ولا يُشعِرنّ بكمْ أحداً ، إنّهم إنْ يَظهرُوا عليكمْ يَرْجموكمْ أو يُعيدُوكمْ في مِلّتِهمْ ولنْ تفلحوا إذاً أبداً[1] » .

ولقد تسامع أهل البلد بقصة اضطهاد فتية مؤمنين في دولة الوثنيين الفجــار ، وسمعوا ما جرى لهم ، وكيف غادروا وطنهم واختفوا عن الأنظار ، وانقطع أثرهم ، وقد قامت الدولة المسيحية الفتاة ، تحيي آثار النصرانية المضطهدة وتجدّد معالمها ، وتحيي ذكرى أبطالها وشهدائها ، وتفكر في تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم ، وفي مقدمة هؤلاء الأبطال « أصحاب الكهف والرقيم » .

طرداء الأمس أبطال اليوم : وكانت قصــة « أصحاب الكهف » حديث البلد ، إذ خرج رائدهم متستراً ، متلطفاً ، خائفاً يترقب ، يبحث عن طعـام لذيذ ، ويرجع بـه سريعاً إلى أصحابه ، ويقنع من الغنيمة بالإياب ، فإذا هو بغية البلد ، وإذا هو وأصحابه من الأبطال الذين تتغنى البلاد — حكومة وشعباً — بمجدهم وجهادهم ، وبطولتهم .

---

(١) أيضاً — ١٩ ، ٢٠ .

يعثر عليه – عن طريق العملة القديمة التي كان يحملها ، أو اللهجة التي كان يتكلم بهـــا ، أو الزي الذي كان يلبسه ، فالقرآن لا يعنى بهـذه التفاصيل التي هي موضوع الرواية ، لا الهداية – ويشيع الخبر في البلد ، وأنحـاء المملكة ، ويصبح الشغل الشاغل للنـــاس ، ويقبل الناس زرافات ووحدانا إلى هذا الكهف الذي آواهم ، ويسعدون بزيارتهم ، ويمسك القرآن – على عادته – عن ذكر تفاصيل احتفاء النـــاس بهم ، وإجـــلالهم وتقديرهم لهم ، ولكنه يقول في قوة وتأكيد : « وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا[1] » . فقد كان هـــذا الانقلاب الذي حدث في الحكومه والشعب ، وعثور الناس عليهم بعد هـذه الغيبة الطويلة إنجازاً لوعده في رفع منارهم ، وتخليد آثارهم ، وقهر عدوهم ، ودليلاً على أن الله يقلب الليل والنهار ، « وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهـــا ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ[2] » وهل كان يرجى أن تزول هذه الدولة القاهرة ، وتنهض المسيحية المقهورة ، ويخرج أصحاب الكهف بعد هذه المدة الطويلة من كهف يشبه المقبرة الواسعة ، فتحيط بهم هالة التقديس والإكبار ، وتفسح لهم الدولة ذراعيها ، ويبسط لهم

(١) سورة الكهف – ٢١ .

(٢) سورة الحج – ٧ .

البلد أحضانه ، ويوطىء لهم أكنافه ؟! أليس في ذلك عبرة لسادة قريش وعظماء مكة ، وتسلية للمسلمين المستضعفين ؟

ومكثوا ما شاء الله أن يمكثوا، ثم وافاهم الأجل المحتوم ، فأصبحوا في محبيهم ، والمعجبين بهم موضوع خلاف ونزاع ، وذهب الناس فيهم مذاهب ، وذلك في أسلوب تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم ، « إذْ يتنازَعُونَ بينهم أمْرَهُمْ فقالُوا ابنُوا عليهم بُنيْاناً ربُّهم أعلمُ بهمْ ، قالَ الذينَ غلبُوا على أمْرِهِمْ لنتخذنَّ عليهمْ مَسْجداً [1] » . ولم يقتصر الأمر على الاحتفاء بشأنهم في عصرهم ، والحرص على تخليد ذكرهم ، بل أصبح

---

(١) سورة الكهف – ٢١ . قال العلامة الآلوسي في تفسيره : « استدل بالآية على جواز البقاء على قبور الصلحاء ، واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة في ذلك وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد ، وقد روى الشيخان ، والنسائي ، عن عائشة رضي الله عنها ، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وأحمد ، والشيخان ، والنسائي : ان أولئك شرار الخلق يوم القيامة .

وليس في الآية أكثر من حكاية قول طائفة من الناس ، وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح لهم ، والحض على التأسي بهم ، فمتى لم يثبت أن فيهم معصوماً لا يدل فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، ومما يقوي قلة الوثوق بفعلهم القول ، بأن المراد بهم الأمراء والسلاطين ، كما روى عن قتادة ، (روح المعاني ج ٥ – ص ٢١ ، ٣٢) .

هؤلاء من رجال التاريخ والديانة ، الذين ظل الناس يختلفون فيهم ويتباحثون ، وتتكون مذاهب وطوائف ، لكل أنصار ، « سيقولونَ ثلاثةٌ رابعُهمْ كلبُهمْ ، ويقولونَ خمسةٌ سادسُهُمْ كلبُهُمْ رجماً بالغيبِ ، ويقولونَ سبعةٌ وثامنُهُمْ كلبُهُمْ قلْ ربّي أعلمُ بِعِدّتِهِمْ ما يعلمُهُمْ إلّا قليلٌ فلا تُمارِ فيهمْ إلاّ مراءًا ظاهراً ولا تَستَفتِ فيهمْ مِنهُمْ أحداً [1] » .

انتصار الايمان على المادية : وهكذا تنتهي هذه القصة الخالدة الأولى من قصص سورة الكهف الأربع ، قصة الصراع بين الايمان والمادية، أو قصة الصراع بين الاعتماد على الأسباب، وبين الاعتماد على خالق الأسباب ، تنتهي بانتصار الايمان على المادية ، وصدق الاعتماد على خالق الأسباب .

لقد آثر الفتية المؤمنون الايمان على المادة ، وآثروا الآجل على العاجل ، وآثروا أن يعيشوا فقراء غرباء ، وهم مؤمنون، على أن يعيشوا أغنياء أو أمراء وهم كافرون ، وآثروا أن يعيشوا بعيداً عن الوطن والأقارب والأحباب ، لا حظّ لهم في متعة الحياة ، ولذة العيش ، وعز الحكومة ، على أن

---

(١) سورة الكهف – ٢٢ .

يشركوا بالله، ويرضوا شهواتهم، ويتعاونوا على الاثم والعدوان، لقد فرّوا من مقتضى النفس إلى مقتضى الروح ، ومن مقتضى العقل إلى مقتضى الايمان ، فتحقق أنهم كانوا أعمق عقلاً وأبعد نظراً ، وأن العاقبة للمتقين، لقد فرّوا من الأسباب إلى خالق الأسباب، فلم ينتقلوا من هذا العالم، حتى خضعت لهم الأسباب، وخضعت لهم حكومة فرّوا من خوفها وعقابها بالأمس .

وقصة « أصحاب الكهف والرقيم » هي قصة الإيمان والفتوة والثبات ، والتضحية والجهاد ، التي تتكرر في تاريخ الانسانية ، وفي تاريخ الحق والعقيدة ، وبرهان على أن الأسباب خاصعة للارادة الإلهية ، صديقة للايمان والعمل الصالح، فسبيل المؤمن أن يستميل هذه الإرادة بالإيمان والعمل الصالح ، ويستحق نصر الله وتأييده .

وقبل أن يبدأ القرآن بالقصة الثانية ، وهي قصة صاحب الجنتين ، يوصي النبي ﷺ ، بالتمسك بحبل الله ، والتمسك بالسبب الأكبر الأقوى ، أو العروة الوثقى ، وهو سبيل الايمان وسبيل القرآن ، ويوصيه بلزوم أولئك المؤمنين الذين سعدوا بالايمان والمعرفة واليقين ، والذكر والدعاء ، وإن كان حظهم قليلاً من الأسباب ، ومن متع الدنيا وزخارفها ، ويوصيه بمجانبة أولئك الجهال الغافلين الذين حرموا الايمان والمعرفة واليقين، وما يتبع ذلك من الذكر والدعاء، وملكوا

مقداراً كبيراً من الأسباب والقوى والخيرات، وإنما هي وصية عامة لقراء القرآن وأتباعه ، والمؤمنين به ، بل هم أحوج إلى تنفيذها والعمل بها ، « واصبرْ نَفْسَكَ معَ الذينَ يدعونَ ربَّهم بالغداوةِ والعشيِّ يُريدونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عيناكَ عنهمْ تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قلبَهُ عَنْ ذكرِنا واتَّبعَ هواهُ وكانَ أمْرُهُ فُرُطا [1] » .

لقد كانت هذه خطة أصحاب الكهف وأصحاب الإيمان والمعرفة في كل عصر ، وهي إيثار الإيمان والعمل الصالح ، والصلة الروحية بالله على المظاهر والظواهر، والأسباب والقوى، والتمرد على المادة وأصحابها ، والاستهانة بزخـــارف الدنيا ومتعها ، وهي دعوة سورة الكهف ، ودعوة القرآن ، « ولا تَمدنَّ عينيْكَ إلى ما مَتَّعنا بهِ أزواجاً منْهم زهرةَ الحياةِ الدُّنْيا لنفتنَهمْ فيهِ ، ورزقُ ربّكَ خيرٌ وأبْقَى [2] » . وسورة الكهف تدور حول هذه النقطة ، وتشير إليها بكل مناسبة .

---

(١) سورة الكهف – ٢٨ .

(٢) سورة طه – ١٣١ .

تقديس المادة ورجالها في الحضارة الداجلة: وقد عارضت الحضارة المادية—وصورتها المكبرة الواضحة هي المدنية الداجلة العصرية—هذه الروح، وهذا الاتجاه بخط مستقيم، فقد قامت على تقديس المادة ورجالها، وإجلالهم والخضوع لهم، وقد لهجت فلسفتها وأدبها — بجميع أنواعه من شعر ونثر، ورواية وصحافة، وتمثيل وتاريخ — بإطراء أصحاب رؤوس الأموال، وأصحاب الملايين وأصحاب النفوذ المادي، والسيطرة السياسية أو الاقتصادية، وذهبت إلى تأليههم، وحثت على تقليدهم، والتمثيل بهم.

الغلو والتطرف سمة هذه الحضارة: لا أجمل في وصف هذه الحضارة المتهورة، ووصف صاحبها الذي يتشبع بروحها، ويحسن تمثيلها من قوله تعالى: « ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قلبهُ عنْ ذكرِنا واتّبع هواهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطاً[1] » وقد أصبح الإسراف والإجحاف، والغلو والتطرف سمة لهذه الحضارة وشعاراً تعرف به، ويعرف به صاحبها، إسراف في التكسب والإنتاج، وإسراف في التلهي والتسلية، وإسراف في البذل،

---

(١) سورة الكهف — ٢٨ .

وإسراف في النظريات السياسية ، وإسراف في النظريات الاقتصادية فإما غلو في الديمقراطية ، وإما غلو في الدكتاتورية، وإما تطرف في الشيوعية ، وإما تقديس للأعراف والمثل ، والنظم والقوانين ، التي هي من وضعه أو وضع بني جنسه ، حتى لا يتخلى عنها قيد شعرة ، ويرى العدول عنها جريمة تحرم صاحبها كل شرف وتقدير ، وإما ثورة جامحة هوجاء عليها حتى ينافي في ذلك العقل المستقيم والذوق السليم ، والفطرة التي فطر الناس عليها ، فيخرج بذلك عن صف الإنسان المتمدن إلى صف الوحوش والدواب [1] ، وإما تطرف في الرأسمالية ، لقد كان أمره فرطاً في كل ما يختاره ويؤثره، وفي كل ما يدين به ويدعو إليه، أما السداد والقصد،

---

(١) وقد تجلى هذا الاتجاه في حركات الدعوة إلى الحرية الحيوانية والعري ، والاختلاط غير المقيد في « أمريكا » و « أوربا » ، وتجلى أخيراً في الشباب الأوربي الذي يسميه بعض الكتاب بالخنافس Hippies وهي ظاهرة في كل مدنية ، أصيبت بالتخمة المادية ، والضجر الفكري ، والقلق النفسي ، وظهر ذلك في « يونان » و « رومة » ، إقرأ ما جاء في كتاب «الجمهورية » لافلاطون من تصوير الشاب اليوناني في عهده ، واقرأ ترجمته في « ماذا خسر العالم ... » ص ١٧٧ ، الطبعة الثامنة .

والتوسط في الأمرين ، فهو من أبعد خلق الله منه ، وأقلهم نصيباً من ذلك .

العدل والسداد ميزة هذا الدين وحضارته :

أما الحياة التي تنبثق من تعاليم النبوة ، فهي الموصوفة بالاعتدال والسداد ، « والذينَ إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قَواما[١] » . وقد وصف الله هذه الأمة القرآنية بالتوسط والاعتدال ، فقال : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا[٢] » ، وكان رسول الله ﷺ المثل الكامل في التوسط والاعتدال[٣] ، وقد وصف الله

---

(١) سورة الفرقان – ٦٧ .

(٢) سورة البقرة – ١٤٣ ، في المدارك ، أي كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب ، جعلناكم وسطاً بين الغلو والتقصير ، ص ٤٧ ، وفي الخازن : والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٣) اقرأ صفته عليه الصلاة والسلام في كتب الحديث والسيرة ، واقرأ تعليماته ووصاياه لايثار التوسط والقصد في كل شيء في كتب السنة وقد قال علي بن أبي طالب وغيره « كان معتدل الأمر غير مختلف لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، وقال ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما » (جزء الشمائل للترمذي) .

دين الإسلام بالاستقامة والاعتدال ، والبعد عن الإفراط والتفريط ، ونعته بلفظ « القيّم » و « القِيَم » فقال مخاطباً لنبيه ﷺ : « قُلْ إنني هداني ربّي إلى صراطٍ مُستقيمٍ دِيناً قِيَماً مِلّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المُشرِكينَ [1] » وقال : « ذلكَ الدينُ القيّمُ [2] » وقال : « فأقِمْ وَجْهَكَ للدّينِ القَيّمِ [3] » ، وكذلك وصف كتابه بالقيّم ، ونفى عنه العوج والزيغ ، فقال في مفتتح سورة الكهف التي نتكلم عنها : « الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عَبْدِهِ الكتابَ ولمْ يَجْعلْ لهُ عِوَجاً ، قيّماً لينذرَ بأساً شديداً مِنْ لدُنْهُ ويبشرَ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لهمْ أجراً حسناً ماكثينَ فيهِ أبداً [4] » وقال : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة [5] » وقال : « قُرآناً عَرَبيا غيرَ ذي عِوَجٍ لعلّهُم يَتّقُونْ [6] » .

---

(١) سورة الأنعام – ١٦١ .

(٢) سورة التوبة – ٣٦ ، وسورة يوسف – ٤٠ ، الروم : ٣٠ .

(٣) الروم – ٤٣ .

(٤) الكهف – ١ ، ٢ .

(٥) البينة – ٢ ، ٣ .

(٦) الزمر – ٢٨ .

ولا شك أن روح الاستقامة والسداد سارية في هذا الدين، متغلغلة في أحشائه ، مسيطرة على نظمه وشرائعة ، وحضارته وثقافته ، وبالعكس من ذلك ، فالحضارة المادية ، التي ولدتها أوربا في عصرها الموتور الثائر على الدين والأخلاق والنظم ، فاقدة الاتزان من أول يومها، متصفة بالغلو والتطرف في نظمها ومناهج حياتها ، والزيغ والعوج في فلسفتها وتفكيرها ، والتطويل والتهويل في علومها وثقافتها، وإيثار العسير والطويل في جميع اتجاهاتها ، وفي مثل هذه الحضارة ، تفقد الطبائع سلامتها، والعقول استقامتها، والحياة بساطتها وسهولتها والأمم وحدتها وألفتها .

قصة صاحب الجنتين

ويبدأ القرآن بقصة صاحب الجنتين ، وهي قصة أكثر وقوعاً في الحياة اليومية والحياة العادية من القصة الأولى ، فإذا تمثلت قصة أصحاب الكهف في عقود من السنين ، فقصة صاحب الجنتين تتمثل في كل مكان وحين ، إنها قصة رجل حالفته السعادة ، وتوفرت له أسباب الهناء والرخاء ، له جنتان من أعناب – الثمر الكريم الحبيب – محفوفتان بنخل – الشجر الكريم الحبيب – يتخللها الزرع الكريم الحبيب ، أنها غاية السعادة والغبطة في الحياة المتوسطة ، وإن الحياة المتوسطة ، هي المقياس في أكثر شؤون الدنيا

ولم تقتصر سعادة السري الثري على وجود الجنتين فحسب ، بل واتته الأسباب وجاءت الجنتان بخير حاصل ونتيجة ، « كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتت أكلَها ولمْ تظلمْ منهُ شيئاً وفجّرْنا خلالَهما نهراً [1] » . وهكذا تمت له السعادة ، وتجمعت له أسباب الهناء والرخاء .

---

(١) سورة الكهف ٣٣ .

الطبيعة المادية ، وقصر نظرها : هنالك تثور الطبيعة المادية في هذا الرجل السري الثري - نفس الطبيعة التي تثور في أصحاب الحكومات والولايات ، وأصحاب رؤوس الأموال والعقارات ، وأصحاب الزعامة والوزارات ، وأصحاب الصناعات والاختراعات ، وأصحاب البوارج والمدمرات - تثور هذه الطبيعة التي لا يقهرها الإيمان ، ولا تضبطها المعرفة الصحيحة ، والتربية الصالحة ، فينسب سعادته وجده إلى علمه ولباقته ، وجهوده وذكائه ، كما فعل قارون من قبل ، فقال : « إنّما أوتيتُهُ على علمٍ عِنْدي [1]» ، ويفاخر صديقاً له لا يعادله في هذه السعادة فيقول في صراحة بل وقاحة : « أنَا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نفرَاً [2] » .

ويدخل في مركز رخائه وثرائه ، ومركز نفوذه وسلطانه ، جاهلاً لنفسه ، جاهلاً بربّه ، جاهلاً بالأسباب الخفية ، والإرادة الإلهية التي تحكم من فوق سبع سموات ، وتحول بين الإنسان وملكه ، وبين الإنسان وقلبه ، ظالماً لنفسه ظلماً علمياً وعملياً ، وخلقياً وعقلياً ، فتنطق هذه الطبيعة المادية العمياء على لسان صاحبها الجاهل ، فيعلن خلوده وخلود جنتيه ، ويجحد بالبعث ، ويعلن سعادته الدائمة - في الدنيا

---

(١) سورة القصص - ٧٨ .

(٢) سورة الكهف - ٣٤ ،

والآخرة ، إن كانت آخرة – في صلف وخرق ، : « ودخلَ جنّتَهُ وهوَ ظالمٌ لنفسِهِ قالَ ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذهِ أبداً وما أظنُّ الساعة قائمةً [1] ». ويعتقد أنه من الرجال المجدودين السعداء ، الذين لا يخونهم الحظ ، ولا يعثر بهم الجد ، ويكونون في كل مكان وزمـــان في أوج السعادة والسيادة . « ولئنْ رُدِدْتُ إلى ربّي لأجدنَّ خيراً منها مُنْقلباً [2] » ويعتقـد أمثال هذا أن لا حاجة إلى الإيمان والعمل الصالح والكدح ، إنما هي سعادتهم الفطرية ، التي تهيىء لهم الهنـاء والرخاء في كل وقت .

التفكير الايماني : وكان صديقه قد فتح الله بصيرته للحق والإيمـــان ، وسعد بمعرفة الله وصفاته وأفعاله ، وأنه هو المصرّف لهذا الكون ، والخالق للأسباب ، والمغيّر للشؤون ، فعارضه في مقالته وتفكيره المادي ، ونبّهه إلى أصله وحقيقته وبدايته ، وهي الحقيقـــة القاسية التي يتناساها المجدودون المخدوعون ، ويفرون من تذكرها « قالَ لهُ صاحبُهُ وهو يحاورُهُ أكفرتَ بالّذي خلقَكَ مِنْ تُرابٍ ثمّ مِنْ نُطْفةٍ ثمّ سوّاك رَجـــلاً [3] » ، وما أشق سماعه على المتكبرين

---

(١) سورة الكهف – ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) أيضاً – ٣٦ .

(٣) أيضاً – ٣٧ .

الجبارين ! وذكر له أنه سائر في اتجاه معارض ، وهو الاتجاه الإيماني: « لكنـّا هوَ اللهُ ربـّي ولا أُشركُ بربـّي أحداً [١]».

ثم ذكره بالحقيقة الأساسية التي تدور حولها سورة الكهف، والوتر الحساس الذي تضرب عليه ، وهو أنه ليس الشأن في الأسباب ، إنما الشأن في خالق الأسباب ومالكها ، وكل ما يراه السري الثري من أسباب السعادة والهناء ، ويغتبط بها ، ليس من صنع الأسباب وليس من كسب يده وذكائه ، إنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، ويلفته – في حكمة ورفق – إلى الاعتراف بصنع الله وقدرته، وإسداء كلمة الشكر والحمد، « ولولا إذْ دخلتَ جنـّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ لا قوةَ إلا ّ بالله [٢] » .

روح السورة ومفتاح القصة : و « ما شاءَ اللهُ لا قوّةَ إلا ّ بالله [٣] » هي روح هذه السورة ومفتاح القصة ، وقد أوصى الله تعالى نبيه – وكل قارىء للقرآن – قبل آيات بتفويض الأمر والقوة إلى الله تعالى في المستقبل ، وفي ما ينويه ويريده في المستقبل ، وأن يشترط كل إرادة وعزم

---

(١) سورة الكهف – ٣٨ .
(٢) أيضاً – ٣٩ .
(٣) أيضاً – ٣٩ .

بمشيئة الله تعـالى ، فقال : « ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلكَ غداً إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ واذكرْ ربّكَ إذا نسيتَ وقُلْ عَسَى أنْ يهدينِ ربّي لأقربَ مِنْ هذا رَشداً [1] » .

وكيف يخضع للأسباب وعبادتها ، والمـادة وأصحابها ، ويؤمن بالنفس وإرادتها ، من ينسب الفضل في كل ما حصل ، والفضل في كل ما ينوي إلى الله وحده ، ويقول : « ما شَاءَ اللهُ لا قوّةَ إلاّ باللهِ » ، ويستثني في كل ما يقصده ويعتمد به ، فيقول : « إنْ شاءَ اللهُ » ، وهـاتان — ما شاء الله ، وإن شاء الله — كلمتان خفيفتان على اللسان يكثر النطق بهما من غير شعور وتعقل ، ولكنهما كلمتان ثقيلتان عميقتان ، زاخرتان بالمعـاني ، حاسمتان للمادية الرعناء ، والاعتماد على النفس والإرادة .

اعتماد الحضارة المادية على وسائلها وقواها :

وقد امتـازت الحضـارة المـادية بشدة الاعـتماد على وسائلهـا وقواها وطاقاتها ، فتعلن حكوماتهـا تحقق مشاريعهـا [2] العمرانية والاقتصـادية ، حتى مـا يتوقف

(١) سورة الكهف — ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) لا يعني ذلك طبعاً أن لا توضع المشروعات ، وتتسع الدراسات القائمة على وسائل العلم في الانتاج وإنما المهم أن لا تطغينا مظـاهر القوة والعلم ، فنغفل عن جلال الله الذي خلق الأسباب ومسبباتها .

منها على موافقة الطبيعة ، واعتدال المواسم والفصول ، في المدة المحدودة من غير استثناء وشك وتعلن أنها ستنتج كذا وكذا في كذا وكذا من الأعوام، وتصبح بلادها كافلة لنفسها، مستغنية عن الخارج ، وتسخر منها الإرادة الإلهية ، فتصاب بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبالمجاعات والمفاجئات التي لم تكن في الحساب ، وتتخلف عنها الأمطار في حين أو مكان ، وتصاب بالفيضان ، والسيل العرم في حين أو مكان آخر ، فيخطىء التقدير ، وتخفق المشاريع .

الايمان بالارادة الالهية والاعتماد عليها :

ليست كلمة « إن شاء الله » والوصية بالتكلم بها محدودة في الأعمال الفردية التافهة ، أو الحوادث اليومية « البسيطة » من مقابلات وزيارات ، ومواعيد شخصية وأسفار ، بل هي الشاملة للأعمال الاجتماعية الكبيرة، والعزائم والمشاريع العظيمة ، التي تؤثر في حياة الأمة ومصيرها ، فيجب أن يكون كل ذلك – مع السعي ، والجد والجهاد ، والأخذ بالتدابير اللازمة ، الذي حث عليه القرآن والسنّة، وجرى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه في حياتهم ، – خاضعاً للإيمان بأن الإرادة الإلهية هي القاضية الحاكمة ، وهي الفاصلة الحاسمة ، وليس الفرد هو المخاطب الوحيد بقوله : « ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلكَ غداً

إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ (١) ، بل المجتمعات ، والحكومات ، والمنظمات ، والمؤسسات كلها معنيّة مكلّفة بها وهي روح المجتمع الإسلامي الذي يتغلغل فيه الإيمان ، وروح الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالغيب، وهي الفارقة بين الحضارة المادية ، والحضارة الإيمانية .

وينبّهه صديقه المؤمن إلى أن هذا الاختلاف في الحظوظ والجدود ، وأن هذا التوزيع ليس أبدياً، لا يزول ولا يحول، وأن زمام الأسباب والتصرف في العالم لم يفلت من يد خالق الكون ، فلا يزال يملكه ، والشقي قد يسعد ، والسعيد قد يشقى ، والغني ربما يفقر ، والفقير ربما يغنى ، فلا غرابة إذا انقلبت الأوضاع : « إن ترنِ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً ، فعسَى ربّي أنْ يُؤتيَنِ خيراً مِنْ جنّتِكَ ويرسلَ عليها حُسْباناً مِنَ السماءِ فتصبحَ صعيداً زلقاً ، أو يُصبحَ ماؤُها غَوْراً فلَنْ تستَطيعَ لهُ طلَبا (٢) » ، وهكذا كان ! فطاف على الجنتين طائف من الله ، وأصبح كل ذلك صعيداً جرزا .

هنالك أفاق الرجل السكران : « وأحيطَ بثمرهِ فأصبحَ

---

(١) الكهف – ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) الكهف – ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

يُقلبُ كفيهِ على ما أنفقَ فيها وهي خاويةٌ على عروشِها ويقولُ يا ليتَني لم أشركْ بربّي أحداً ، ولمْ تكنْ لهُ فئةٌ ينصرونَهُ مِنْ دونِ اللهِ وما كانَ مُنتصراً ، هنالكَ الوَلايةُ للهِ الحقِّ هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقباً[1] » .

إشراك صاحب الجنتين : إن صاحب الجنتين لم يكن مشركاً بالله كعامة المشركين ، فليس في القرآن ما ينص على ذلك ، أو يشير إليه ، بل بالعكس يشعر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به ، فقد قال : « ولئنْ رُددْت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها مُنقَلبا[2] » .

فما كان شركه الذي تأسف عليه ، وقرع عليه سنّ الندم : « يا ليتَنِي لمْ أشركْ بربّي أحداً[3] » ؟! الظاهر الذي لا خفاء فيه ، أنه كان أشرك بالله الأسباب ، فاعتقدها المصرفة المؤثرة ، التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه ، وازدهار ماله ، واعتمد عليها ، ونسي الله ، وكفر بتأثيره وتصرفه .

---

(١) الكهف – ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) الكهف – ٣٦ .

(٣) سورة الكهف – ٤٢ .

وثنية هذا العصر : وهذا هو الشرك الذي اتجهت إليه الحضارة العصرية المادية ، فقد اتخذت الأسباب الطبيعيّة ، والمادية والفنية ، وأصحاب الاختصاص فيها ، الذين نسميهم « الاخصائيين » (Specialists) أرباباً وأولياء من دون الله ، ووضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم ، واعتقد أن بيدهم الحياة والموت ، والسعادة والشقاء ، لقد أصبحت عبادة الأسباب والماديات والقوى الكونية ، وعبادة الطبيعة ، والاعتماد الكلي على أصحاب الاختصاص ، واتخاذهم أرباباً من دون الله وثنية جديدة ، مضافة إلى الوثنية القديمة التي لا تزال لها آثار وأنصار ، ودعاة وأتباع ، وهو نوع من الشرك ، الذي ينافس الإيمان والعبودية ، وهي الوثنية التي تتحداها سورة الكهف وتحاربها وتنعي عليها .

يمثل القرآن هذه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يلبث أن يكون هشيماً : « واضربْ لهمْ مثلَ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناهُ مِنَ السماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبحَ هشيماً تذروهُ الرياحُ وكانَ اللهُ على كلّ شيءٍ مُقتدراً [١] » .

وهذا هو تصوير القرآن لهذه الحياة القصيرة الفانية في مواضع كثيرة ، ففي سورة يونس : « إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناهُ منَ السماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ مما يأكلُ

(١) أيضاً – ٤٥ .

النّاسُ والأنعامُ حتى إذا أخذتْ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّينت وظنَّ أهلُها أنّهم قادرونَ عليْها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصِيداً كأنْ لمْ تغنَ بالأمسِ كذلكَ نُفصّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرونَ [1] » .

وهكذا يصور القرآن الحياة التي يؤمن بخلودها الماديون ، ويعكف على عبادتها « النفعيون » و « الأبيقوريون » ويزيّف مكاييلها وموازينها التي يعتمد عليها قصار النظر وعباد الأسباب والمظاهر ، ويمجّدونها ، ويعقدون بها الآمال الكثيرة ، ويفضّل عليها المكاييل الإيمانية : « المالُ والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربّكَ ثواباً وخيرٌ أملاً [2] » .

نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا : وهنا نقف وقفة قصيرة، ونتساءل : ما هي نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا ؟ ويحسن بنا أن نستعرض القرآن في هذا الموضوع ، ونستوحيه ، فقد اضطربت عقول المسلمين ونظراتهم ، وأقوال الباحثين واتجاهاتهم في هذه الحياة ، وقيمتها ومنزلتها .

---

(١) سورة يونس — ٢٤ .

(٢) سورة الكهف — ٤٦ .

إن القرآن يقرر – بكل وضوح وقوة وصراحة – قصر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها، وتضائلها في جنب الآخرة: فيقول مثلاً: «فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرةِ إلا قليل[1]». ويقول: «وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانُ لو كانوا يعلمون[2]». ويقول: «اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكمْ وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مصفراً ثمّ يكونُ حطاماً وفي الآخرةِ عذابٌ شديد ومغفرةٌ منَ اللهِ ورضوانٌ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور[3]».

ويقرر كذلك في وضوح وقوة أنها قنطرة إلى الاخرة، وفرصة للعمل، فيقول: «إنا جَعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوَهمْ أيُّهم أحسن عملاً»[4]، ويقول: «الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكمْ أيُّكُمْ أحسنُ عملاً وهوَ العزيزُ الغفورُ»[5].

---

(١) سورة البراءة – ٣٨.
(٢) سورة العنكبوت – ٦٤.
(٣) سورة الحديد – ٢٠.
(٤) سورة الكهف – ٧.
(٥) سورة الملك – ٢.

ويقرر أن الآخرة هي خير وأبقى ، فيقول : « ومـــا الحياةُ الدنيـــا إلا لعبٌ ولهوٌ وللدارُ الآخرةُ خيرٌ للذينَ يتقونَ أفلا تعقلونَ [١] » ، ويقول : « وما أوتيتمْ مِنْ شيءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا وزينتـُها وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبْقَـى أفـلا تـَعْقِلونَ » [٢] .

إذن هو يذم ويشنع على من يؤثر الدنيـــا — هذه الفانية العارضة ، السقيمة الناقصة — على الآخرة — الباقيـة الخالدة الواسعة ، الصافية من الأكدار ، الخاليـة من الأخطار ، — فيقول : « ان الذينَ لا يرجونَ لقـاءَنا ورضوا بالحياةِ الدنيا واطمأنـّوا بها والذينَ همْ عن آياتنا غافلونَ ، أولئكَ مأواهم النارُ بما كانوا يكسبونَ [٣] » ويقول: « منْ كانَ يريدُ الحياةَ الدنياوزينتهانوفِّ إليهمْ أعمالهمْ فيها وهمْ فيها لا يبخسونَ، أولئكَ الذينَ ليسَ لهمْ في الآخرةِ إلاَّ النـــارُ وحبطَ ما صنعُوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملونَ »[٤] ، ويقول: « وويلٌ للكافرينَ منْ عذابٍ شديدٍ ، الذين يستحبونَ الحيـاةَ الدنيا على الآخرةِ ويصدونَ عن سبيلِ اللهِ ويبغونها عِوَجا أولئك

---

(١) سورة الأنعام — ٣٢ .

(٢) سورة القصص — ٦٠ .

(٣) سورة يونس — ٧ ، ٨ .

(٤) سورة هود — ١٥ ، ١٦ .

في ضلالٍ بعيد »[1] ، ويقول : « يعلمونَ ظاهراً من الحياةِ الدنيـــا وهمْ عنْ الآخرةِ همْ غافلونَ »[2] ، ويقول : « فاعرِضْ عمَّنْ تولّى عن ذِكرِنا ولم يُردْ إلّا الحياة الدنيا ذلكَ مبلغهُمْ مِنْ العِلمِ ، إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ بمنْ ضلّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بمنْ اهتَدَى »[3] ، ويقول : « إنّ هؤلاءِ يحبّونَ العاجِلة ويذرونَ وراءَهمْ يوماً ثقيلاً »[4] ، ويقول : « فأمّا مَنْ طَغَى وآثرَ الحياةَ الدنيـــا فإنَّ الجحيمَ هيَ المأوى »[5] .

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، ومعرفة قيمتها وفضلها ، والحرص عليها ، فيقول : « فمنَ الناسِ منْ يقولُ ربنا آتِنا في الدنيا حسنةً وما لَهُ في الآخرةِ منْ خلاقٍ ، ومنهمْ مَنْ يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الاخرةِ حسنةً وقِنا عذاب النارِ »[6] ، ويقول على لسان نبي الله موسى : « واكْتُبْ لنـا في هذه

---

(١) سورة ابراهيم — ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الروم ٧ .
(٣) سورة النجم — ٢٩ ، ٣٠ .
(٤) سورة الانسان — ٢٧ .
(٥) سورة النازعات — ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩
(٦) سورة البقرة — ٢٠٠ ، ٢٠١ .

الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنا هُدْنا إليكَ[1] » ، ويمدح خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيقول : « وآتيناهُ في الدنيا حسنةً وإنّهُ في الآخرةِ لمنَ الصالحينَ[2] » .

بين الأديان السماوية والفلسفات المادية :

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوة ، أو مدرسة النبوة — إن صحّ هذا التعبير — مع الفلسفات المادية والتفكير المادي ، الذي يلحُّ على أن هذه الحياة هي كل شيء ، وهي المنتهى ، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها ، والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتحسينها ، وتزيينها .

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية ، أو النظرة القرآنية الى الحياة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما كان يقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[3] ، وكان دعاؤه صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً — وفي رواية : كفافاً — »[4] .

وعن المستورد بن شداد : قال سمعت رسول الله صلى الله

---

(١) سورة الأعراف — ١٥٦ .
(٢) سورة النحل — ١٢٢ .
(٣) رواه البخاري في كتاب « الرقاق » .
(٤) رواه مسلم في كتاب « الزهد » .

عليه وسلم يقول : « والله مـا الدنيا في الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليمّ فلينظر بمَ يرجع »[1] ، وقد كانت حياته الطيبة مرآة صادقـة لهذه العقيدة والنفسيّة . فمن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نام على حصير وقد أثر في جسده ، فقال ابن مسعود يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل ، فقال : « مالي وللدنيا ، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركهـا »[2] .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإيلاء : « فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال[3] حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمـال بجنبه، متكئاً على وسادةمن أدم حشوها ليف فسلمت عليه... (إلى أن قال) فرفعت بصري في بيته فوالله مـا رأيت فيه شيئاً يراد البصر غير أهبة ثلاثة[4] ، فقلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارساً والروم قـد وسع لهم وأعطوا الدنيـا ، وهم لا يعبدون الله ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً ، فقـال : « أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»[5].

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه .

(٣) المراد به النسج .

(٤) جمع اهاب وهو الجلد .

(٥) البخاري ج — ٢ كتاب « النكاح » .

تلاميذ مدرسة النبوة وسيرتهم : وقد انصبغ كل من تلقى التربية في هذه المدرسة أو تخرج فيها ، أو كان تلميذاً من تلاميذها بهذه الصبغة ، وسيطرت عليه فكرة الاخرة ، وجرت منه مجرى الروح والدم ، وتغلغلت في أحشائه ، فأصبح لا يذهل عن الاخرة ولا يبغي بها بدلاً ، ولا يؤثر عليها شيئاً ، فيكفيك إذا أردت أن تتمثل هذه الروح المسيطرة على تلاميذ هذه المدرسة ، أن تقرأ صفة علي بن أبي طالب ، وهي صورة ناطقة للطراز الإنساني الذي تخرج في هذه المدرسة ، ونشأ في أحضان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة : صف لي علياً ، فقال : أوتعفيني ؟ قال : بل صفه ، قال : أوتعفيني ؟ قال : لا أعفيك ، قال : أما إذا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، ويتفجر العلم من جوانبه ، وينطق بالحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه لعظمه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا

ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيتــه في بعض مواقفه ، وقـد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبـكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا أبي تعرضت ، أم لي تشوفت ؟ هيهات هيهات ! غرّي غيري ، قـد بتـّتك ثلاثاً لا رجعــة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبعــد السفر ، ووحشة الطريق » [1].

وإليك مثال ثان ، وهو خطبة رجـل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يلقيها أمير على عاصمة كبيرة من عواصم الدولة الاسلامية الكبرى :

« عن خالد بن عمير العدوي ، قال : خطبنــا عتبة بن غزوان – وكان أميراً على البصرة – فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولـّت حذّاء[2]، ولم يبق منها إلاّ صبابة [3] ، كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنـكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لهـا ، فانتقلوا بخـير

---

(١) صفوة الصفوة لابن الجوزي .

(٢) أي مسرعة الانقطاع .

(٣) البقية اليسيرة من الشراب ، تبقى في أسفل الاناء .

ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً ، والله لتملأن ، أفعجبتم ؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليها يوم ، وهو كظيظ من الزحام ، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعيد بن مالك فاتّزرتُ بنصفها واتّزر سعيد بنصفها ، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنها لم تكن نبوّة قط إلاّ تناسخت ، حتى تكون آخر عاقبتها ملكاً فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا »[1] .

تحرج العقليات وبعض الدعوات من عقيدة الآخرة :

ولا تستطيع العقليات والدعوات التي لم تتشبع بروح الإيمان ، ولم تتلق التوجيه والتربية من مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة أن تهضم هذه الفكرة أو العقيدة ، أو الاتجاه ولا تسيغه ، ولا تزال في صراع منها أو في حرج من ذلك ، وتحاول الفرار منه أو

---

(١) مسلم ج - ٢ ، « كتاب الزهد » .

تعليله بأنه كان في عصر خاص ، وفي بيئة خاصة ، وبظروف وأسباب خاصة ، ولكن الذي لا غموض فيه أن القرآن وسيرة الرسول ، والحديث النبوي ممتلىء بهذه الروح ، وأن هذا هو المزاج الاسلامي ، أو النفسية الاسلامية ، التي تتكون تحت تأثير التربية الاسلامية النبوية ، وكلما استطاع القرآن ، وكلما استطاعت السيرة النبوية ، أن تعمل عملها بحرية وتنشىء جيلاً خاصاً يخلق في الاسلام خلقاً جديداً ، ولم تساوره العوامل الأجنبية، كان ذلك مزاجه أو طبيعته، أو نفسيته: زهد في هذه الدنيا وزخارفها وفضولها، وقناعة بالقدر الكافي، واهتمام بالآخرة وما ينفع فيها ، وحنين إلى لقاء الرب، وإيثار ما عند الله على ما في هذه الحياة، واستقبال للموت على الإيمان وفي سبيل الله ، وقد تفيض على شفة هذا الطراز المؤمن كلمة السابقين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم: « غداً ألاقي الأحبّة ، محمداً وحزبه »[1] .

اختلاف في منهج الدعوات النبوية والدعوات الاصلاحية :

وقد تفي بعض الدعوات الإسلامية بعقيدة الإيمان بالآخرة، وتشرحها شرحاً جميلاً ، وتذكر – في توسع وبلاغة – حكمتها وتأثيرها في الحياة ، وأهميتها في النظام الخلقي ، ولكن

---

(١) من قول سيدنا بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه : الغزالي في الاحياء عن ابن أبي الدنيا .

القارىء الذكي يلاحظ أنـه إيمان بالاخرة كضرورة خلقية ، وكحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرهـا مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فضلاً عن المجتمع الاسلامي ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما، أن الأول – منهج الأنبياء – إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك على الانسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرفاته ، والثاني اعتراف وتقرير ، وقانون مرسوم ، وأن الأولين يتكلمون عن « الاخرة » باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوة، والاخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ، أو الحاجة الاجتماعية وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتّان ما بين الوجدان والعاطفـــة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية .

من عوامل القوة والاقدام : ولكن هذا الإيمـان العميق القوي بالاخرة ، وإيثارها على الدنيا والزهد في زخارف الحياة وفضول المعيشة ، لم يحمل أصحابه على الاعتزال عن قيـــادة العـالم وتوجيه الإنسانية ، والعيش في عزلة عن الحياة ، ولم يحملهم على رفض أسباب المعيشة ، والقعود عن الكفاح للحق والخير ، ولم يكن عاملاً من عوامل الضعف والاستسلام – كما شوهد ذلك في بعض القرون المتأخرة – بل كان عاملاً من عوامل القوة والإقدام ، والتمرد على قوى الشر ، ومن أعظم

أسباب الشجاعة ، والقوة والانتصار ، وقد كان أشجع الناس وأنشطهم في الكفاح للحق ، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والفتح الاسلامي ، أزهدهم في هذه الحياة الدنيا ، وأحرصهم على الاخرة ، وأقواهم إيماناً بها ، وأعظمهم شوقاً إلى لقاء الرب والشهادة في سبيل الله ، وهذه طبيعة هذه العقيدة ، فإنها تبعث في صاحبها الشجاعة والنجدة والإقدام ، والإستهانة بالحياة والتغلب على الشهوات ، ولا شك أن الإسلام يدين لهذه العقيدة في انتشاره وانتصاره وفتوحه .

لا صلة بين هذه العقيدة والرهبانية : إذن ليست هذه العقيدة « الإيمان بالاخرة » وهذه النظرة القرآنية إلى هذه الحياة الدنيا في شيء من « الرهبانية » الممقوتة ، التي ينكر عليها القرآن ، ويكفر بها الإسلام ، والتي ظهرت في العالم الإسلامي بعد ضعف التعاليم الاسلامية ، وبعد القرون المشهود لها بالخير ، وبتأثير النزعات العجمية ، والفلسفات « الأجنبية » المسيحية والبوذية ، والبرهمية ، والأفلاطونية الجديدة ، إنها عقيدة تقوم على إيثار الاخرة على الدنيا من غير تخريب لها ، وإنكار لقيمتها الصحيحة ، وعلى الكفاح في سبيل الاخرة ، وفي سبيل الحق والخير ، والتغلب على الشهوات الفانية في سبيل البقاء والخلود ، وابتغاء رضوان الله ، ولا شك أن المسلمين لم يضعفوا إلا بضعف هذه العقيدة ، وأن الجيل الحاضر منهم الذي – أصبح فريسة أهوائه وشهواته – في حاجة ملحة

إلى تجديد هذه العقيدة وإثارتها في كثير من الناس ، وإعادتها من جديد في كثير منهم ، وان المسلمين لا يستقيم ميزانهم، ولا يكمل إيمانهم حتى ينظروا إلى هذه الحياة بمنظار القرآن ، وهو الذي يأباه التفكير المادي ، وتعارضه الفلسفات المادية الـتي تعبد الحيـاة عبادة ، وتهيم بشهواتها ولذّاتها ، وتقتصر على ترفيهها وتوسيعها ، وتكفر بما وراءها .

وقد تكفلت سورة الكهف الرد على هذا التفكير ، وعلى هذه العقيدة وزعمائها ، وألحّت على تصوير هذه الحياة الدنيا التصوير الصحيح المطابق ، وإن لم يرض كثيراً من الناس .

قصة موسى والخضر

ونبدأ بالقصة الثالثة : قصة موسى والخضر ، إنها قصة هذه الحياة ، وقصة هذا الكون ، الذي نعيش فيه ، إنها قصة تثبت في صورة عملية ، واضحة رائعة ، أن وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم ، وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة ، وأن ما يجهله الإنسان – وأعظم إنسان في عصره – أكثر مما يعلمه ، وانه دائماً يبني حكمه على ما يشاهده ، ويشعر به ، ولذلك يخطىء كثيراً ، ويتعثر كثيراً ، وانه لو انكشفت له حقائق الحياة ، وبواطن الأمور وعواقبها ، لتغيّر حكمه كثيراً ، ونقض ما أبرم ، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته ، وميوله وانطباعاته ، وأن لا إحاطة بهذا الكون الواسع ، ولا يصح الإسراع في الحكم ، والإلحاح على سوانح الآراء ، فإن الحياة غامضة ملتوية ، وأن الكون واسع فسيح ، وكثيراً ما يختلف الباطن عن الظاهر ، والآخر عن الأول ، وأن في هذه الحياة ألغازاً ، لم يستطع الإنسان – على ذكائه وعلمه وحرصه – أن يحلّها ، وأن في هذا الكون عقداً وغوامض لم يستطع العلم البشري مهما اتسع

وارتفع أن يكشفهـــا ، وأن حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة ، والأحكام السريعة ، والخطوات المتهورة، والآراء المرتجلة، وأنه لو أُسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح، ومُنح الحرية التامـة ، والتصرّف المطلق ، لأفسد العالم ، وأهلك الحرث والنسل ، لأن نظره قاصر ، وعمله محدود ، وقد خلق من عجل ، وفطر على السرعة وقلة البصر .

بين موسى والخضر : لقد اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة – التي هي أساس الأديان أو الإيمان بالغيب – أعظم شخصية في عصره ، والذي أوتي علماً كثيراً ، وخيراً كثيراً، هو موسى عليه الصلاة والسلام أحد أولي العزم من الرسل ، « قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم، قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك »[1] .

تصرفات غريبة : وتبدأ رحلته مع الرجل الذي آتاه الله من عنده رحمة ، وعلـّمه من لدنه علماً ، فيصطدم علمه وفهمه بالحقيقة الراهنة ، ويتعارض حكمه ورأيه واتجاهـه – وهو الاتجاه الذي يقرره الظاهر – مع واقع الأمر الذي يجهله ، ثلاث مرات : إن الخضر يخرق السفينة التي حملتها ، وأركبها

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ج – ٢ ، « كتاب التفسير » ،

صاحبها من غير نول [1] ، ولكن الخضر يكافىء يده بضدها ويتسبب– على ما كان يظهر لموسى– في غرق ركابها الوادعين، ويقتل غلاماً زكياً لم يسىء إليهما ، ولم يسىء أبواه، وبالعكس من ذلك يقيم جداراً يريد أن ينقض من غير أجرة يتقاضاها ، وذلك في قرية لم يضيّفها أهلها ، ولم يعرفوا حقها ، هذه كلها تصرفات غريبة من الخضر تثير في موسى الاستغراب والدهشة ، وتحمله على الإنكار والسؤال مرة بعد مرة ، فقد كان من حق السفينة التي حملتها أن يحتفظ بها ويحرص عليها ، وقد كان من حق صاحب السفينة الذي أسدى إليهما المعروف أن ينصح له ويعرف له الفضل ، وقد كان من حق الغلام الزكي الوسيم أن يحب ويحرس ، وقد كان من حق القرية التي تنكرت لهما وجفتهما ، وقسا عليهما أهلها ، وشحوا بفضول طعامهم وأزوادهم ، أن لا يحسن إليهم ، ولا يحرص على أموالهم ، ولكن الخضر يعاكس المعقول ، المعروف المنتظر ، ويتخذ في جميع هذه القضايا الثلاث موقفاً لا يقره العقل، ولا يؤيده المنطق ، ولا يسيغه الذوق ، ولا يملك موسى نفسه – وهو المؤمن الغيور والنبي المرسل – أمام هذه التصرفات الغريبة ، فينسى وعده ، ويسرع إلى الإنكار والتساؤل ، ويقول : « لقدْ جئتَ شيئاً نُكْراً » [2] .

---

(١) أجرة الركوب .

(٢) سورة الكهف – ٧٤ .

ما أعجب الحقائق اذا ظهرت ! : ويؤجل الخضر الإجابة عن أسئلة موسى وإقناعه ، ويمضي في خطته بتؤدة وأناة ، حتى تنتهي هذه الرحلة إلى غايتها المقدرة ، فيكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث ، التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى – ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن – مرة واحدة ، فيتجلى أن الخضر كان مصيبا محسناً ، حكيماً في تصرفاته الثلاثة ، وأنه لم يكن مسيئاً في موضع إحسان ، ولا محسناً في موضع إساءة ، وقد أحسن إلى صاحب السفينة بخرقها إذ حفظها من الاغتصاب ، فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة – صالحة سليمة – غصبا ، فكافأه بذلك على إحسانه ومعروفه ، وقد أحسن إلى أبوي الغلام بقتله إذ كان هذا الغلام فتنة لهما ، كان يخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فرأى أن بكاء ساعة أفضل من بكاء طول الحياة وبعد الحياة ، ورأى أن الغلام عنه عوض ، ولا عوض عن الدين والعافية ، « وأمّا الغلامُ فكانَ أبواهُ مؤمنينِ فخَشينا أنْ يُرْهقَهما طُغْياناً وكُفراً ، فأردْنا أنْ يُبْدلَهما ربُّهما خيراً منهُ زكاةً وأقربَ رُحما » [1].

وقد أصلح الجدار وأقامه ، لأنه كان ليتيمين من أبوين صالحين ، وكان تحته كنز لهما لو تهدم وانقض هذا الجدار

---

(١) سورة الكهف – ٨٠ ، ٨١ .

لانكشف هذا الكنز الدفين ، واختطفه السّراق والناهبون ، وبقي الغلامان من غير مال ولا رصيد ، وهكذا ظهر أن صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات ، وأن الله لم يرد أن يضيع أولاد الرجل الصالح ، فكيف يضيع الرجل الصالح ، « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[1] ، « فاستجابَ لهمْ ربُّهمْ أني لاأُضيعُ عملَ عاملٍ منكمْ منْ ذكرٍ أوأُنثى »[2]، وأن البذور الصالحة تظهر نتيجتها ، كما أن البذور الفاسدة تظهر نتيجتها : « وأمّـا الجدارُ فكانَ لِغلامينِ يتيمينِ في المدينةِ وكانَ تحتَهُ كنزٌ لهما وكانَ أبوهُما صالحاً فأرادَ ربُّكَ أنْ يَبلُغا أشدَّهُما ويَستخرجا كنزَهُما رحمةً من ربّكَ وما فعلْتُهُ عن أمْري ذلكَ تأويلُ ما لمْ تسطعْ عليهِ صَبْراً »[3].

العلم البشري لم يبلغ الكمال والغاية : ما أعجب الحقائق إذا ظهرت ! وما أبعد الشقة بين الصورة والحقيقة ، والظاهر والباطن ، وما أعقد هذه الحياة ، وما أغمض هذا الكون ، وما أكثر ألغاز الحياة ، ومـا أجرأ الانسان في إدعائه أنه أحاط بكل شيء علماً ، ووصل إلى الحقيقة في كل قضية !

---

(١) سورة يوسف – ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران – ١٩٥ .

(٣) سورة الكهف – ٨٢ .

ما أبعد الخضر عن الصواب، وسبيل الرشاد في أوائل الأمور وما أقربه إليه وما أرشده في عواقب الأمور ! لقد تحقق أن هذه الحيـاة لا تزال تطلع بكل جديد ، وتهجم بكل غريب ، وتحقق أن العلم البشري لم ينته الى الحـد الأخير ، « وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ » [1] .

تحدٍّ للتفكير المادي : إن هذه القصة وما تشتمل عليه من روح ومغزى ، تتحدّى التفكير المادي الذي يلـح على أن الحياة هي التي فهمها الانسان ، وعلى أن هذا الكون هو الذي أحاط به علماً ، وأن ليست الحقيقة إلا ما تتراءى للعيون ، وأن الظواهر هي التي يصح عليهـا الحكم ، وأن الانسان يستحق أن تسند إليه إدارة هذا العالم، ويخوّل حق التشريع، فقد اكتمل عقلاً وعلمـاً ودراسة ، وبلغ الى أغوار الحقيقة ، وأعماق العلم ، وحقائق الكون .

لقد قامت الفلسفات المادية على هذا الأساس ، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة، وسورة الكهف ، – بعامة محتوياتها ومختلف آياتها – وقصة موسى والخضر بصفة خاصة تنقض هذا الأساس ، وتهدم هذا البناء ، وتنتهي القصة

---

(١) سورة يوسف – ٧٦ .

بقول الخضر لموسى : « ذلكَ تأويلُ مـــا لمْ تـطعْ عليهِ صبْراً » [١] ، والتأويل في إصطلاح القرآن هو الحقيقة [٢]، « وهكذا يتعجـل الانـسان وينكر ويخطىء حتى تتجلى له الحقيقة ، ويأتي التأويل .

القصة الرابعة ، وهي الأخيرة قصة رجل جمع بين الإيمان والصلاح ، والقوة الفائقة ، وتسخير القوى والطاقــات المهيأة للإنسان ، واستخدام الوسائل الموجودة في عصره، فاستخدم كل ذلك – بعكس الطغاة المفسدين ، والفاتحين الظالمين – في صالح الانـسان ، وفي خدمة البشرية ، وبناء المدينة الصالحة .

---

(١) سورة الكهف – ٨٢ .

(٢) راجع تفسير سورة الاخلاص لشيخ الاسلام ابن تيمية .

قصة ذي القرنين

اختلف المفسرون في شخصية هذا الرجل ، والقول الشائع المشهور ، أنه الاسكندر المقدوني ، وهو القول الذي انتصر له الإمام الرازي ، وذهب إليه عامة علماء الإسلام ، ولكنه قول لا وجه له ، لأن الاسكندر المقدوني لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين ، من اتصافه بالإيمان بالله وخشيته ، والعدل والرأفة بالمفتوحين ، وبناء السد العظيم ، وأرجح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الاسكندر وسيرته في الحروب ، وذهب بعض الفضلاء المعاصرين [1] إلى أنه الشخص الذي يسميه اليونان

---

(١) أشهرهم المرحوم مولانا أبو الكلام آزاد ، الزعيم المسلم ، والكاتب الاسلامي ، ووزير المعارف سابقاً في الجمهورية الهندية ، له بحث طويل في هذا الموضوع ، دعمه بالوثائق التاريخية ، وشواهد من كتب اليهود في المجلد الثاني من كتاب « ترجمان القرآن » في تفسير سورة الكهف ، وهنا خلاصة للقارىء العربي باختصار كبير :

« ظهر سائرس في سنة ٥٥٩ ق . م . وقد جمع بين مملكتين فارسيتين =

« سائرس Syrus » ، وتسميه اليهود « خورس » ، ويذكره المؤرخون العرب بـ « كيخسرو » .

= عظيمتين ، كانتا قد انفصلتا منذ زمان . وهما : (ميديا)الجزء الشمالي الذي قد يعبر عنـــه المؤرخون العرب بـ « ماهات » ، وفارس الجزء الجنوبي ، فكوّن منها امبراطورية فارسية عظمى ، ثم امتدت فتوحـــه ومغامراته التي اتسمت بالعدل والكرم ، والانتصار للضعيف المظلوم ، فلم ينقض اثنا عشر عاماً حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الأسود الى باختر Bactria ، وقد ثبت تاريخياً أنه غزا الغرب مرة ، فأوغل فيه الى غرب آسيا الصغرى ، وفتح دولة ليديا التي كانت عاصمتها ساردس Sardis حتى وصل الى البحر في أقصى الغرب ، فوجده يموج ، وتراءت له الشمس تغرب فيه ، فتوقف هناك لعدم وجود البوارج الحربية ، ولا يستغرب اذا كانقد وصل الى ساحل من سواحل بحر ايجه Agean Sea الواقع في جوار « سمرنا » والبحر يتراءى هناك بحيرة ، وقـــد تمثلت له الشمس في الأصيل تغيب في الوحـــل الذي نشأ على ساحلها ، وهو الذي يصوره القرآن بقوله : « وجدها تغرب في عين حمئة » .

وغزا ثانية الشرق، فوصل في هذه الغزوة الى مكران وبلخ ، وأخضع القبائل الهمجية التي ليست لهـــا وقاية من الشمس لبعدها من المدنية ، « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً » ، ثم ذهب الى بابل العاصمة المنيعة ، فأنقذ اليهود « بني اسرائيل » من الذل والأسر، والاضطهاد الذي سلطه عليهم ملك بابل « بخت نصر» فأصبح بذلك منقذ اليهود، =

ونحن نوافق على ما كتبه الاستاذ الشهيد سيد قطب في هذا المقام ، يحسن بنا أن ننقله حرفياً ، قال رحمه الله : « أن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ، ولا عن زمانه أو مكانه ، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن ، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود ، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة ، والعبرة تتحقق بدون حاجة الى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان .

والتاريخ المدوّن يعرف ملكاً اسمه الاسكندر ذو القرنين،

= ولهجوا بذكره والثناء عليه ، والتساؤل عنه،وبذلك حقق نبوءات بني اسرائيل الواردة في التوراة .

وكانت له غزوة ثالثة في الشمال، وقد ترك بحر خزر Caspian Sea عن يمينه ، حتى وصل الى جبال القفقاس ، فوجد فجوة واقعة في هذه الجبال كان يدخل منها يأجوج ومأجوج ويعيشون في البلاد ، وهنا أقام السد ، وقد مات سائرس سنة ٥٢٩ ق.م. فوجد في سنة ١٨٣٨ م تمثال من رخام في أنقاض اصطخر Passar Gadae ظهر في رأسه قرنان مثل قرني الكبش ، يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جمع بينهما سائرس ، وبذلك سمي ذا القرنين ، وقد شهد المؤرخون المصريون بكرم سائرس . وشخصيته العادلة الفاضلة . ومن أراد التوسع في ذلك فليقرأ مقالة البروفسور B. Grundi راجع المجلد الثاني من Universal History of the world. لمؤلفه « J. A. Hammerton » .

ومن المقطوع به ، أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن ، فالاسكندر الإغريقي كان وثنيـاً ، وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله ، موحد معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيروني المنجم في كتاب « الاثار الباقية عن القرون الخالية » : « ان ذا القرنين المذكور في القرآن ، كان من حمير مستدلاً باسمه ، فملوك حمير كانوا يلقبون بذي ، كذي نواس ، وذي نيرن ، وكان اسمه أبو بكر ابن افريقش ، وأنه رحـل بجيوشه الى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ، ومراكش ، وغيرهما ، وبنى مدينة افريقية ، فسميت القارة كلها باسمه وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس » .

وقد يكون هذا القول صحيحاً ، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه ، ذلك أنـه لا يمكن البحث في التاريخ المدوّن عن ذي القرنين ، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح وغيرهم ، فالتاريخ مولود حديث العهـــد جداً بالقياس إلى عمر البشرية ، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة ، لا يعرف عنهـــا شيئاً ، فليس هو الذي يستفق فيها !

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات ، لكانت

مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث، ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير، وشحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله، فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي.

وإذن فلم يبق إلا القرآن، الذي حفظ من التحريف والتبديل، هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي، ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم الى التاريخ لسببين واضحين:

أولهما: أن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً، والقرآن يروي هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها!

وثانيهما: أن التاريخ - وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف، ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد، أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات

متناقضة ، ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق !

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ بما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل ، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء ، إنما هو مراء !!

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين ، سألوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته ،وليس أمامنا مصدر اخر غير القرآن في هذه السيرة ،فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم ، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ،ولكنها لا تعتمد على يقين وينبغي أن تؤخذ بحذر ، لما فيهاس اسرائيليات وأساطير [1] » .

مثل للملك الصالح المصلح : وسواء اهتدينا إلى شخصية معينة مؤكدة نطلق عليها اسم ذي القرنين ، ونطبق عليها التفاصيل التي جاءت في القرآن ، أو لم نهتد إليها في ضوء

---

(١) « في ظلال القرآن » الجزء السادس عشر ، الطبعة الخامسة ، لسيد قطب ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

التاريخ الذي لا نملك منــه إلاّ القليل الناقص الذي تأخر تدوينه ، وتعسر الجزم به ، والاعتماد عليه، فإن ذلك لا يضر قارىء القرآن ولا ينقصه، فهو رجل آتاه الله القوة والأسباب، وعلو الهمة والطموح المحمود ، « آتيناه من كل شيءٍ سبباً فأتبعَ سَبَباً[1] » . لقـد اتسعت فتوحاته ، وامتدت إلى أقصى الشرق « مطلعَ الشمسِ » وإلى أقصى الغرب « مغربَ الشمسِ » ، فكان في كل فتوحه ومغامراته ، صالحاً ومصلحاً، منتصراً للحق ، ناصراً للضعفاء ، قاهراً للطغاة الأقوياء، وكان من مبدئه وخطتـــه « قالَ أمّا من ظلمَ فسوفَ نعذّبُه ثمّ يُرَدُّ إلى ربهِ فيعذّبُهُ عذاباً نُكْراً ، وأمّا منْ آمنَ وعملَ صالحاً فلهُ جزاءً الحُسْنى وسنقولُ لهُ مِنْ أمْرِنا يُسْراً[2] » . وما أفضله من مبدأ ، وما أعدله من خطـة ، وما أقومه من خلق وسيرة .

وواصل فتوحه ومغامراته حتى وصل إلى أمــة تعيش في فجوة من جبلين ، تعيش في خطر دائم ، وفي قلق دائم ، من أمة همجية وحشية ، وراء الجبال، يذكرها القرآن، وتذكرها

---

(١) سورة الكهف — ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) سورة الكهف — ٨٧ ، ٨٨ .

الصحف السماوية بيأجوج ومأجوج[1] ، تعيش في حياة مضطربة دائماً متصارعة دائماً ، « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض »[2] ،

---

(١) ونحن نؤيد الاستاذ سيد قطب فيما قال في تفسير هذه الجملات ، إذ قال :

«ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ اليه ذو القرنين « بين السدين » ولا ما هما هذان السدان ، كل ما يؤخذ من النص انه وصل الى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر ، فوجد هنالك قوماً متخلفين : « لا يكادون يفقهون قولاً » (ج ١٦ ، ص ١٣) .

أما يأجوج ومأجوج ، وتحديد جنسيتهم ومكانهم ، وزمن خروجهم ، وأوان فتح السد ، فكل ذلك يطول البحث فيه في ضوء التفسير ، وما ورد في الأحاديث من أشراط الساعة ، والفتن والملاحم ، ويصعب الجزم بشيء على طريق التعيين والتأكيد ، والاطلاق والتطبيق ، فنحيل القارىء إلى كتابات من توسعوا في هذا الموضوع من المتقدمين والمتأخرين على قلة عددهم وندرة كتاباتهم ، ولا تزال أبواب الفتن والملاحم والأحاديث التي جاءت فيها اشراط الساعة ، وما كان ، ويكون بين يدي الساعة ، تنتظر باحثاً عالي الهمة ، راسخ القدم في العلوم الدينية ، عالي الكعب في التاريخ ، صبوراً دءوباً في الدراسة والبحث ، سليم العقيدة ، حسن القصد ، فإنها من أدق العلوم وأوسعها بحثاً ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

(٢) سورة الكهف - ٩٩ .

ورأوا أن الفرصة سانحة ، وأن الله قد قيض لهم ، وساق إليهم ملكاً صالحاً قوياً ، فطلبوا منه أن يحفظهم من هؤلاء الوحوش المفسدين ، ويستعمل وسائله الكثيرة ، وجيشه الكثيف في بناء السد الذي يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج ، وعرضوا عليه أموالهم .

وقبل الرجل الصالح طلبهم ، ووعدهم ببناء السد ، واستغنى بما اتاه الله من الخير الكثير عن أموالهم ، بخلاف الملوك الطامعين ، وطلب منهم أن يساعدوه بالسواعد ، وما يوجد في بلادهم من الحديد والفولاذ : « قالَ ما مكَنّي فيهِ ربّي خيرٌ فأعينوني بقوةٍ أجعلْ بينكُم وبينَهم ردْماً ، آتوني زُبرَ الحديدِ » [1] ، وتعاون الجميع في بناء هذا السد المبارك ؛ الملك الصالح بحكمته وصناعه ، وأهل البلاد بأيديهم وحديدهم : « حتّى إذا ساوَى بينَ الصدفينِ قالَ انفُخوا حتى إذا جعلهُ ناراً قالَ آتوني أفرغْ عليهِ قِطْرا » [2] .

وتهيأ السد وتم المشروع ، وأمن القوم الأعداء وراء

---

(١) سورة الكهف — ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) سورة الكهف — ٩٦ .

الجبلين الشامخين، والسد المنيع « فما اسْطَاعوا أن يَظْهروه وما استطاعوا لهُ نقْباً »[1] .

فقه المؤمن العليم : وهنا تجلى الإيمان في الملك القوي الغني ، القاهر للأمم ، الفاتح للعالم ، فما زها ، وما سها، وما تكبر ، ولم يقل : « إنَّما أوتيتُهُ على علمٍ عندي »[2]، بل رد الفضل في كل ذلك إلى الله تعالى ، ولم يعتقد أن عمله دائم خالد ، وأن السد لا سبيل إليه ، بل قال في فقه المؤمن العليم ، المؤمن بالآخرة ، والعليم بضعف الانسان ، وتقلبات الزمان ، « قالَ هذا رحمةٌ منْ ربّي فإذا جاءَ وعدُ ربّي جعلَهُ دكاءَ ، وكان وعدُ ربّي حقاً »[3] .

هذه سيرة الانسان القوي العليم الذي يسخر القوى الكونية والمادية ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل ، ويوسع فتوحه ومغامراته ، وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته ، وتسخيره للقوى والأسباب ، مؤمن بربه خاضع له،

---

(١) سورة الكهف – ٩٧ .

(٢) سورة القصص – ٧٨ .

(٣) سورة الكهف – ٩٨ .

مؤمن بالآخرة ساعٍ لها ، مقر بضعفه ، رحيم بالانسانيةوبالأمم الضعيفة ، حامٍ للحق ، يستخدم كل قوته وجهده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره ، لخدمة الانسانية وتكوين المجتمع الصالح ، وإعلاء كلمة الله ، وإخراج الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله ، سيرة مثّلها سليمان بن داود عليهما السلام في عصره ، ومثّلها ذو القرنين في عصره ، ومثّلها الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون في عصورهم .

طابع الحضارة الغربية ، الثورة على فاطر الكون :

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسي الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر ، قد ثار على الدين وأسسه ، من الإيمان بالغيب وغير ذلك ، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم ، وهمجيتهم ، ووقوفهم في سبيل التقدم ، وحرية العقل والعلم [1] ، فرافق نشوء الحضارة والصناعة ، والاتجاه المادي العنيف – الاتجاه

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتابنا « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الفصل الأول من الباب الرابع .

إلى تنظيم الحياة - على أسس مادية خالصة، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها، ومصرّف هذا الكون، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب، وطبائع الأشياء، ووضع أوربا الخاص، فشبّت هذه الحضارة واختمرت مع الإلحاد والإفساد، وقد أصبحت المسيطرة على القوى والأسباب، وبلغت الغاية في التقدم والصناعة، وعلوم الطبيعة، حتى استطاعت أن تعدم المساحات والأبعاد، وتجاوز الكرة الهوائية، واستطاع الانسان أخيراً أن يصل إلى القمر، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية.

فالجمع بين القوة الهائلة، وتسخير القوى والأسباب، والاستيلاء على الكون وبين الكفر والمادية، طابع الحضارة الغربية، وسمتها وشعارها، فلم نعرف حضارة بلغت من القوة والتقدم، وإخضاع القوى والأسباب، ومن محاربة الأديان والأخلاق، والثورة على فاطر الكون وشرائعه، والدعوة إلى عبادة المادة، والنفس والشهوات، وادّعاء الربوبية ما بلغت هذه الحضارة.

منتهى الحضارة المادية: لقد شبّت هذه الحضارة كما قلنا مسيطرة على الكون، كافرة بالله، مؤمنة بالمادة، ونشأ رجالها لا يؤمنون إلّا بقوتهم وصناعتهم، ولا ينظرون إلّا إلى

فائدتهم ومصلحتهم ، وأصبحت مراكزها الكبرى – أميركا، وأوربا بما فيها روسيا – حرباً – بإعلان وغير إعلان – على الغيب والروح والأخلاق ، والنظم السماوية ، وقرب الزمان الذي تبلغ فيه هذه الحضارة غايتها المادية والصناعية ، ويظهر زعيمها الأكبر الذي ينعتـه لسان النبوة ، ويلقبـه بـ « الدجال »[1] . وهو في ذروة التقدم المادي، والصناعي، وأوج الكفر بالله، والدعوة إلى المادية والإلحاد وعبادة الطبيعة والأسباب ، ومن يسخرها ويسيطر عليهـا ، تلك فتنة العصر

---

(١) قد بلغت الأحاديث التي ورد فيهـا ذكر « الدجال » وكثير من صفاته حد التواتر المعنوي ، ونصت على انه شخص معين بصفات معينة ، يظهر في زمن معين – لم يحـد بالتاريخ والتوقيت في شعب معين هم اليهود ، فلا سبيل الى إنكاره ، ولا ضرورة في ذلك ، وفي ظهوره وعلو كلمته في فلسطين ، وهو المسرح العالمي الأخير الذي تتمثل عليه أروع قصة للصراع بين الايمان والمادية وبين الحق والباطل ، وبين أهل الحق الشرعي والطبيعي ، الذين أكبر سلاحهم وحجتهم، انهم حملة الدين والحق ، والدعوة الى الله، وإلى إسعاد الانسانية والمساواة البشرية وبين أولئك الذين يؤمنون بقدس عنصر واحد ، ودم واحد ، ويكافحون لاخضاع العـالم ووسائل الانسانية لسيطرة هذا العنصر وسيادته ، ويملكون أعظم الوسائل العلمية ، والطاقات الفنية ، وقد بدت طلائع هذا الصراع الحاسم في مصير الانسانية على افق الشرق العربي الاسلامي ، وبدأت الحوادث والظروف تهيء الجو المناسب والبيئة الصالحة التي تتمثل فيها هذه القصة على يد أبطالها الحقيقيين .

الأخير ، وداهية العالم ومنتهى الحضارة المادية ، التي ظهرت قبل قرون في أوربا .

سمة الدجال الكفر والافساد : إن ذلك كله تصوير للحضارة المادية ، والصناعية الميكانيكية والعلوم الطبيعية ، التي تبلغ غايتها ونهايتها ، ويتزعمها الدجال ، ولكن ذلك لا يكفي ليجعله الدجال ، ويلهج لسان النبوة بذمه وتشنيعه ، والتحذير من فتنته ، فقد ملك هذه الأسباب والقوى سليمان في عصره ، وذو القرنين في عصره ، وتحدث القرآن عن قوتها وسرعتها وكثرة الأسباب والقوى التي كانا يملكانها ، فما هي النقطة الفارقة بينهما وبين الدجال ، وما هو الخط الفاصل بين الملك الصالح ، والرجل القوي العليم ، الذي يمدحه الله تعالى ويقول : « نِعْمَ العبدُ إنه أوّابٌ (1) » ، وبين الشخصية الفتانة التي حذّر منها الرسول ، وخافها على أمته واهتم بها هذا الاهتمام الكبير ؟

إن النقطة الفارقة ، والخط الفاصل ، أن سليمان وذا القرنين ومن أشبههما من الأفراد والجماعات من المسلمين في القرون الأولى ، قد جمعوا الى القوة الفائقة ، والملك الواسع والحكمة

---

(1) سورة – ص ٣٠ .

المدهشة ، وتسخير القوى الطبيعية والأسباب المادية الإيمان الراسخ ، والعمل الصالح ، والسيرة الفاضلة ، والمقاصد الخيرة، والدعوة إلى الله وإلى الحق ، واستخدام كل ما أوتوه من علم وحكمة ، وسبب وقوة في إسعاد البشرية، وخدمة الانسانية، والرحمة والعدل ، فقد وصفهم القرآن بقوله : « الذينَ إنْ مكَّنَّاهُمْ في الأرضِ أقامُوا الصلاة وآتَوا الزكاةَ وأمرُوا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور[1]» وبقوله : « تلكَ الدّارُ الآخرةُ نجعلُها للذينَ لا يُريدونَ علوّاً في الأرضِ ولا فَساداً والعاقبَةُ للمُتّقين[2] » .

أما الدجال فسمته وطابعه الذي عرف الرسول به أمته ، فهو « الكفر » بمعانيه الواسعة الكثيرة ، فقد جاء في حديث صحيح : « أنه مكتوب بين عينيه كفر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب[3] » .

تأثير الدجال في الحياة والمجتمع : ويظهر من الأحاديث أنه داعٍ متحمّس ، نشيط مؤثر إلى الكفر والثورة ، على

---

(١) سورة الحج – ٤١ .

(٢) سورة القصص – ٨٣ .

(٣) رواه البخاري .

الأديان والأخلاق ، فقد جاء في حديث آخر : « فوالله ان الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به الشبهات »[1]، ويستفحل أمره ودعوته حتى يستشري الفساد على مرّ الأيام ، في النساء والبنات ، ويتغلغل في الأسر والبيوتات ، ويفقد رب البيت سلطانه ونفوذه على أفراد الأسرة ، وعلى الزوج وربات الحجال والأمهات والأخوات والبنات ، وقد جاء في حديث : « ينزل الدجال بهذه السبخة بمرقناة فيكون آخر من يخرج إليه النساء حتى أن الرجل ليرجع إلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه »[2] ، ويستمر فساد المجتمع ، والتحلل الخلقي : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً »[3] ، ولا أبلغ من هذا التعبير ، ولا أصدق من هذا التصوير ، للحضارة الكافرة المادية في أوج تقدمها وازدهارها ، وفي أعظم مراكزها ، وأمصارها ، وهي معجزة من معجزات النبوة الخالدة ، ومن جوامع الكلم التي لا تنقضي عجائبها ، ولا تخلق جدتها ،

(١) أبو داؤد .

(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر .

(٣) رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

فقد جمعت هذه الحضارة بين خفة الطير التي تطير بها في الفضاء ، وسخرت بها الهواء ، وأصبح بها الانسان العصري أسرع وأخف من الطائر ، وبين الهمجية السبعية التي تدمر بها البلاد والعباد ، وتهلك بها الحرث والنسل في قسوة وهمجية ، لا نظير لهما في التاريخ ، وهذا كله في خفض من العيش ، وسعة الرزق ، وتوفر من الأسباب التي تكفل الهناء والراحة ، التي لم تعرف في دور من أدوار التاريخ ، « وهم في ذلك دارّ رزقهم حسن عيشهم » [1].

يحسبون أنهم يحسنون صنعاً : إن هذه الحضارة ، كما قدمنا تكفر بكل ما وراء هذا العالم المادي ، والحياة الدنيا ، وتركز الجهود والمواهب ، وتكرّسها على ترقية هذه الحياة وترفيهها ، لذلك يقول الله في ضمن الآيات الأخيرة من هذه السورة الكريمة في صراحة ووضوح ، كأنه يخاطب رجال هذه الحضارة المادية وقادتها ، وتلاميذهم النجباء الأوفياء في العالم الاسلامي ، وفي الشعوب المسلمة بالتعيين ، ويصورهم تصويراً دقيقاً تتجسّم فيه ملامحهم وقسمات وجوههم ، وما أبلغ هذه الآيات التي تكفلت الردّ على المادية الملحدة وزعمائها

---

(١) رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو .

الدجالين الذين « إذا قِيلَ لهم لا تُفسِدوا في الأرضِ قالوا إنّما نحنُ مُصلحونَ » (١) ، وما أصدقها انطباقاً على اليهود الذين أعرضوا عن الآخرة وتناسوها في تاريخهم الطويل المليء بالحوادث ، وفي نشاطهم الباهر ، الذي لعب دوراً حاسماً في مجال العقل والحكمة ، والصناعة والسياسة ، وفي انقلاب الحكومات والنظم وحدوث الثورات ، وفي توجيه عبقريتهم ومواهبهم ، وذكائهم إلى الأعمال السلبية الهدامة ، ونشر القلق والفوضى ، والسعي وراء كسب القوة ، والسيادة لعنصر واحد ، هو العنصر الإسرائيلي المقدس ، وشعب واحد ، هو شعب الله المختار .

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخسرِينَ أعمالاً الذينَ ضَلَّ سعيُهُمْ في الحياةِ الدُّنيا وهمْ يحسبونَ أنّهمْ يُحسنونَ صُنْعاً أولئكَ الذينَ كفرُوا بآياتِ ربِّهمْ ولقائِه فحبطتْ أعمالُهمْ فلا نُقيمُ لهمْ يومَ القيامةِ وَزْناً » (٢) .

---

(١) سورة البقرة ــ ١١ .

(٢) سورة الكهف ــ ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

ثم عاد فعارض النظرة المحدودة إلى الكون والعلم القاصر، الذي يزعم الإحاطة بهذا الكون الواسع ، بما فيه الأرض والسماوات ، والمخلوقات والموجودات ، والنجوم والكواكب، وما اشتمل عليه البر والبحر ، والفضاء والخلاء ، وما حواه علم الله وقدرته ، ويتيه به أصحابه ، ويتطاولون بعلمهم ومعلوماتهم ، ودراستهم لهذا الكون ، مع أن كل ذلك لا تبلغ قطرة من البحر ، ولا ذرّة من صحراء واسعة ، وهذا التيه والإعجاب ، والاعتماد الزائد على المعلومات والدراسات ، وما وصل إليه العلم البشري في عصر من العصور ، وإنكار كل ما وراءه ، وهذا الصلف والغرور ، وضيق الفكر وقصر النظر ، هي الجرثومة التي ولدت المادية بجميع معانيها ، أو بجميع مفاسدها وشرورها ، وهي النفسية البشرية المنحرفة ، التي حملت مرة على الظلم والطغيان، وادعاء الألوهية والربوبية، واضطهاد من أكرمهم الله بالمعرفة الحقيقية ، والنظرة العميقة الواسعة ، كما جاء في قصة أصحاب الكهف ، ومرة أخرى على الاقتصاد على الموجود المحدود ، والمتعة الزائلة ، والسراب الخادع ، واعتقاد الخلود ، وبقاء أسباب الرفاهية والهناء وتحقير من كان قليل الحظ من هذه الأسباب ، كما جاء في قصة

صاحب الجنتين ، وقـــد يحمل العلم البشري المحدود على استغراب كل ما ينافي بادي الرأي ، ومقتضى العقل ، وظاهر المحسوس ، كما جـاء في قصة موسى والخضر ، وقد تخطىء العين القصيرة النظر ، فتخيل البعيد قريباً ، والمجاز حقيقة ، فخيّلت لذي القرنين أن الشمس تغرب في عين حمئة « حتّى إذا بلغَ مغربَ الشّمسِ وجدَها تغربُ في عَينٍ حَمِئةٍ »[١]، وخيّلت للملكة سبأ الصرح الممرد من قوارير لجة ماء فعاملتها معاملة ماء وكشفت عن ساقيها « قيلَ لهـا ادْخُلي الصرحَ ، فلمّا رأتهُ حسبتهُ لُجّةً وكشفتْ عنْ ساقيْها قالَ إنّه صرحٌ مُمَرّدٌ منْ قواريرَ »[٢] ، فجاءت خاتمـة هذه السورة قرينة بمقدمتهـــا تبرهن على أن علم الله أعظم من علم البشر ، وعلى أن الكون أوسع مما عرفه الانسان ، وعلى أن كلمات الله – بمعناها الواسع[٣] – لا يحيط بها علم انسان ، ولا يكفي

---

(١) سورة الكهف – ٨٦ .

(٢) القصة بطولها في سورة النمل .

(٣) جاء في روح المعاني للعلامة الآلوسي : « والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وتعالى وحكمته ، وقيل المراد بها مقدوراته جل وعلا، وعجائبه عز وجل ، التي إذا أراد الله سبحانه شيئاً منها ، قال تبارك وتعالى « كن فيكون » .

لتسطيرها الأشجار ، إذا تحولت أقلاماً، والبحار إذا أصبحت مداداً [١] ، « قلْ لوْ كانَ البحرُ مداداً لكلماتِ ربّي لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربّي ولو جئْنا بمثلِهِ مَدَداً» [٢] وقال في سورة لقمان : « ولو أنَّ ما في الأرضِ منْ شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدّهُ منْ بعدِهِ سبعةُ أبْحُرٍ ، ما نفدتْ كلماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ » [٣] .

---

(١) ألقى العلم الحديث أضواءاً لم تكن تخطر بالبال على سعة الكون وعالم الوجود ، والأبعاد الهائلة بين النجوم والكواكب ، وبينها والأرض ، والمسافات التي يقطعها الضوء ، وعدد النجوم المقدر بمليارات في مجرة واحدة ، وكثرة عوالم السدم ، وعدد السدم فيها ، وكثرة الشموس، وأحجام النجوم والشموس وأوزانها ، والنواميس والقوانين الدقيقة العجيبة التي تنظم هذه الكائنات الهائلة ، وتضبط التناسب والتوازن بينها في الفضاء، وتحافظ على الحياة في الأرض، وأسرار نسبة البحر من البر ووضعه الحكيم ، وما اشتمل عليه علم الفلك الحديث من العلوم والحقائق ، وهذا ما عدا علم الاحياء ، وعلم التشريح ، وعلم النبات والحيوان ، وغير ذلك من العلوم التي دقت وتوسعت توسعاً لم يكن الانسان في الماضي يحلم به ويتخيله ، وتكونت فيها مكتبات ، وقامت مختبرات لم تكن بالحساب ، وهذا كله غير الموجودات المجهولات للانسان التي تربى على معلوماته بنسبة بعيدة ، وصدق الله العظيم : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي » (الآية) .

(٢) سورة الكهف — ١٠٩ .

(٣) سورة لقمان — ٢٧ .

الحاجة إلى النبوة ، وسر اختصاص النبي : وهنا ينشأ سؤال ، إذا كان هذا الكون بسعة أرجائه ، وكثرة موجوداته ، وإذا كانت كلمات الله لا تكفي لها الأشجار أقلاماً ، والبحار مداداً ، وإذا كان كل ذلك فوق الطاقة البشرية ، ووراء العقل البشري ، والعلم البشري ، فما السبيل إلى معرفة خالقه ، ومعرفة صفاته وآياته ، وحل لغز الحياة ، والاهتداء إلى سبيل السعادة والنجاة ، وما فضل نبي على غيره ، إذا كان بشراً ؟ والبشر ، عقله قاصر ، وعلمه محدود ، وعن كل ذلك تجيب الآية الكريمة ، فتقول عن لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « قُلْ إنَّما أنا بشَرٌ مثلُكُمْ يُوحى إليَّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ » (١) .

فالسر في هذا الامتياز والاختصاص ، ومصدر هذه المعرفة الصحيحة التي لا سعادة للبشر بغيرها ، هو «الوحي» : « إنَّما أنا بشرٌ مثلُكُمْ يُوحى إليَّ » (٢) .

والآخرة أخيراً : ويختم الله السورة بالحديث عن الآخرة ، وتفخيم شأنها ، والدعوة إلى جعلها أساساً لهذه الحياة ، ولكل

---

(١) سورة الكهف – ١١٠ .

(٢) سورة الكهف – ١١٠ .

عمل ، فجعل النهـــاية مقرونة بالبداية ، منسجمة مع الروح السارية في السورة كلها ، فيقول : « فمن كانَ يرجو لقاءَ ربّهِ فليعملْ عملاً صـــالِحاً ولا يُشركْ بعبادةِ ربّهِ أحداً [1] » .

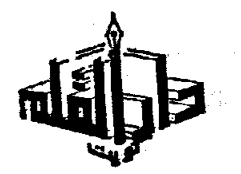
(١) سورة الكهف – ١١٠ .

فهرس



جدول الاغلاط المطبعية

غلط	صواب	صفحة	سطر
ومقات	ومقالات	١١	٢١
الجزري	الجذري	١٥	٥
الأناطول	الأناضول	٢٦	١٤
الاجتماعات	اجتماعات	٣٠	١٥
القراقبين	القرابين	٣٧	٢٣
صفة	صفتة	٤٠	١١
امقصود	المقصود	١٠٢	٥



ص . ب ٢٠١٤٦

ت — ٢٥١٦٠

برقياً : توزيعكو
